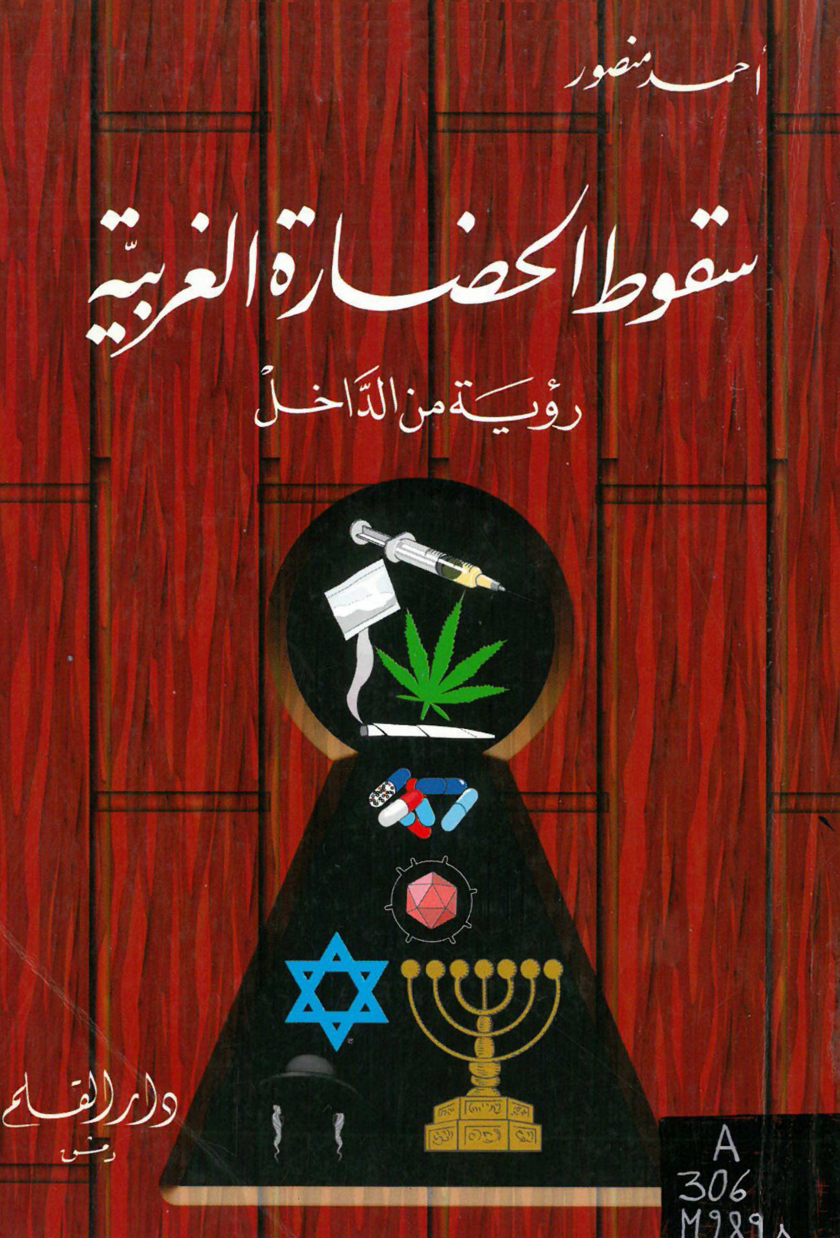


أحمد منصور

سقوط الحضارة الغربيّة

رؤية من الدّاخل

دار القلم
دمشق

هذا الكتاب

بدأت مظاهر الانهيار للحضارة الغربية تظهر في أعقاب الحرب العالمية الثانية، إلا أنها أخذت خلال العشرين عاماً الأخيرة منحى خطيراً، خاصة فيما يتعلق بجرائم القتل والاغتصاب، وانتشار الإدمان والانحلال الأخلاقي والأسري مما يهدد كيانات دول كبرى مثل الولايات المتحدة، وبريطانيا، وفرنسا، وسويسرا، وإيطاليا، وغيرها من الدول الأخرى بالسقوط، وذلك بفعل انهيار الأسرة التي هي اللبنة الأساسية للمجتمع فيها.

ووصلت نسبة الولادة خارج إطار الزواج في بعض هذه البلدان ٥٠٪، كما أصبحت بعض الدول مثل سويسرا ترعى المدمنين وتوفر لهم المخدرات، وكان من الطبيعي أن يقود الانهيار الأخلاقي إلى الانهيار السياسي والاقتصادي لهذه المجتمعات.

وهذا الكتاب هو رصد من الداخل لمعالم انهيار الحضارة الغربية قام به المؤلف من خلال معايشته الصحفية ورحلاته التي جاوزت أكثر من عشرين رحلة إلى أوروبا وأمريكا خلال السنوات الخمس الأخيرة، اعتمد فيها على الوثائق الرسمية ومشاهداته الواقعية.. نقدمها للقارئ العربي آملين أن تضيف جديداً إلى المكتبة العربية.

الناشر

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق: ص.ب: ٤٥٢٣ - ت: ٢٢٢٩١٧٧

الدار الشامية - بيروت - ت: ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب: ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق

دار البشير - جدة: ٢١٤٦١ - ص.ب: ٢٨٩٥

ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

الطَّبْعَة الأولىٰ

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

تُطلب جميع كتُبنا مِن :

دَارُ القَلَم - دمَشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدّار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص.ب : ١١٣ / ٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السّعودية عن طريق

دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥

ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

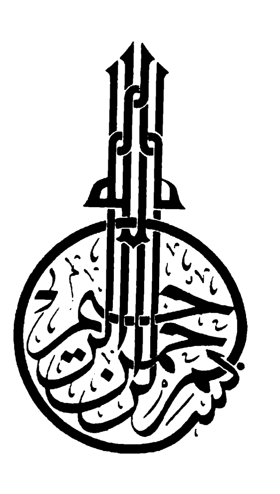
أحمد منصور

سقوط الحضارة الغربيّة

رؤية من الدّاخل

دار القلم
دمشق

الدّار الشّاميّة
بيروت



المقدمة

بدأ الانفلات الأخلاقي في الغرب يأخذ مدى واسعاً في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ولم يقف عند حدود الإباحية الأخلاقية ، وإنما تخطاها إلى كافة أشكال الانفلات في نواحي الحياة المختلفة ، فانتشرت الجريمة المنظمة والعشوائية ، حتى صارت مدن كبرى في الولايات المتحدة مثل العاصمة واشنطن ، وشيكاغو ، ونيويورك ، وغيرها مدناً لا يأمن الإنسان فيها على المسير وحده في الشارع حينما يحل الظلام ، أما التفرقة العنصرية فهي القنبلة الموقوتة التي ستفجر المجتمعات الغربية وعلى رأسها المجتمع الأمريكي .

كما وصل الحال بالأسرة التي هي عماد المجتمع الرئيسي إلى أن يكون هناك ثلاث من كل أربع أسر مفككة أو مهددة بالتفكك والانهيار ، والأكثر من ذلك هو أنه رغم الإباحية الأخلاقية الكبيرة التي تعيشها المجتمعات الغربية ، فقد انتشرت جرائم الاغتصاب والاعتداء الجنسي على القاصرات والمحارم ، فعلاوة على أن ١٩٠٠ امرأة تتعرض للاغتصاب يومياً في الولايات المتحدة ، فإن نسبة الاعتداء الجنسي على المحارم هناك قد بلغ درجة خطيرة ، حتى أن ٢٠٪ من الفتيات اللائي تم اغتصابهن في عام ١٩٩٢م قد تم الاعتداء عليهن من قبَل آبائهن ، و٢٦٪ من قبَل أقارب لهن ، وهذا يعكس حجم الانفلاَت المدمر لبنية المجتمع اَلأمريكي ، أما المجتمع

الإيطالي فإن ما رأيته من سقوط في الشوارع المفتوحة خلال زيارتي أكثر من مرة لإيطاليا يصعب وصفه ، ويكفي أن غرام الإيطاليات بالتعري في الشوارع قد جعل نسبة الإصابة بسرطان الجلد ترتفع بينهن خلال السنوات الأخيرة بنسبة ٣٠٠٪ ، وفي بريطانيا بلغت نسبة السقوط والانهيار الأخلاقي بين الشباب الذين يمثلون ١٥,٢٪ من عدد السكان نسبة عالية للغاية ، أما سويسرا فقد رأيت فيها واحات للمدمنين ، وكلهم أو غالبيتهم من الشباب ويتمتعون برعاية الدولة ، وينفق عليهم ملايين الدولارات ، وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الانهيار إلى التفكك الأسري ، وتلاشي الاستقرار العائلي ، وأن تصبح العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة قائمة على الشهوة دون حاجة إلى رباط زوجي أو أسرة مستقرة ، وقد أدى هذا إلى ظهور جيل جديد بلا آباء ، حيث أدى إعراض الجنسين عن الزواج في الغرب إلى لجوء النساء بدافع الأمومة إلى الحصول على طفل أو أكثر من رجال خارج نطاق الزواج ومؤسسة الأسرة ، وفي غالب الأحيان تنقطع علاقة المرأة بالرجل بعد الحصول على بغيتها منه ، فينمو الطفل ويكبر مع أمه دون أن يعرف من أبوه .

ولم يقف السقوط الحضاري الغربي عند حد الأسرة والفرد ، وإنما أصبح سلوكاً سياسيا تنهجه الدول وحتى المسؤولين فيها ، ويكفي شاهداً على ذلك سقوط الغرب سياسياً أمام قضايا المسلمين في البوسنة ، وألبانيا ، وفلسطين ، وغيرها من قضايا المسلمين أو المستضعفين الأخرى التي توكد على مدى التواطؤ والخيانة لحقوق الإنسان وآدميته من قِبَل الدول التي تقود النظام العالمي في هذه

المرحلة ، وحينما عدت إلى ما فعلته الولايات المتحدة باليابان من إلقاء قنابلها النووية على المدنيين العزل وجدت أن الانهيار السياسي قد بدأ منذ تلك اللحظة التي لم يضعوا فيها أي قيمة أو اعتبار لمئات الآلاف من البشر الذين قضوا عليهم دون جريرة ارتكبوها سوى أنهم كانوا ينتمون إلى دولة يحاربونها في ذلك الوقت .

وتتضح صورة السقوط السياسي في الغرب حينما نجد أن معظم السياسيين يصارعون تحت قباب البرلمانات في أحيان كثيرة من أجل مصالح شخصية أو من أجل إرضاء للجهات التي تدعمهم واستشهدت بذلك من خلال جلسة حضرتها في الكونجرس الأمريكي ، ثم نجد الفضائح السياسية أصبحت سمة للسياسيين في الغرب عموما ابتداءً من الولايات المتحدة إلى بريطانيا إلى إيطاليا إلى معظم أو كل دول أوروبا ، بل إن الأمين العام السابق لحلف الأطلسي ويلي كلاس لم يخرج من منصبه في أكتوبر ١٩٩٥م إلا بعد إدانته في فضيحة فساد كبيرة في بلده بلجيكا .

أما المؤسسات التي أنشأتها الدول المنتصرة في أعقاب الحرب العالمية الثانية فإنها كلها تقوم على ابتزاز الدول الصغيرة والفقيرة لصالح الدول الأقوى دون مراعاة لأي من قواعد الأخلاق أو الحقوق لتلك الشعوب ، كما نجد أن غالبية الدول الاستعمارية قد خرجت عسكرياً من الدول الفقيرة التي كانت تحتلها إلا أنها لازالت تفرض عليها احتلالاً اقتصادياً وسياسياً وثقافياً ، ولازالت تستنزف ثرواتها ، وتقف فرنسا على رأس هذه الدول حيث لازالت نصف الدول

الإفريقية تقريباً تقع تحت الاحتلال الاقتصادي والسياسي والثقافي وأحياناً العسكري الفرنسي .

ورغم الحضارة والمدنية التي تدعيها الدول الغربية فإنها جميعاً أو معظمها لم تخف عداءها وكراهيتها للإسلام والمسلمين بما يؤكد زيف الحضارة التي يدعونها ، وأنها لم تتجاوز حدود الاختراعات الالكترونية وناطحات السحاب ، والصواريخ العابرة للقارات ، أما أسلوب الحياة الذي هو المعيار الحقيقي للحضارة فإنه لم يرتق إلى الأسلوب الآدمي الفطري الذي يحب الخير للناس ، ويتمنى الهناءة للبشرية ، وهذا الانهيار أو السقوط الأخلاقي لا يظهر فقط لدى رجل الشارع العادي ، وإنما للأسف تتبناه الدول والأنظمة ، فدولة كبرى مثل فرنسا تشن بقدها وقديدها وكل أجهزتها ومؤسساتها حملة حاقدة على فتيات مسلمات ضعيفات لا حول لهن ولا قوة لأنهن أردن أن يغطين رؤوسهن ويرتدين الحجاب ، ويستقبل الرئيس الفرنسي في تحد سافر لمليار ومائتي ألف مسلم سلمان رشدي أحد الكتّاب الذين تَطاولوا على المسلمين ، ويصدر وزير الداخلية الفرنسية قراراً يمنع فيه من التداول كتاباً للدكتور يوسف القرضاوي ، يتحدث فيه عن «الحلال والحرام في الإسلام» ، ولم يقف الأمر عند فرنسا التي تدعي بأنها أم الحرية ، بل يمتد إلى سويسرا التي تعتبر نفسها أقدم الحضارات الأوروبية ، فتقف بحكومتها وكنيستها ضد امرأة سويسرية مسلمة ، وتفرض عليها خلع حجابها إذا أرادت أن تستمر في عملها كمدرسة للأطفال في

مدرسة ابتدائية ، وتُسخر كافة وسائل إعلامها للهجوم والسخرية على المرأة المسلمة الضعيفَة ، أما الحكومة الإسبانية فقد رفضت وزارة التربية فيها استلام مقال كتبته طالبة مسلمة عن مشاعرها داخل المجتمع الإسباني ، مُدّعية أن هذا المقال الذي تقدمت به الطالبة ضمن مسابقة نظمتها الوزارة سيثير مشاكل هناك .

أما الولايات المتحدة فقد حوّل إعلامها كل مسلم إلى إرهابي ، وتسعى بشتى الطرق والوسائل إلى استنزاف ثروات المسلمين وتوريطهم فيما يسمى بالمساعدات وتذويب أبنائهم وأجيالهم ضمن إطار برامج التعايش والدمج الحضاري التي تدعيها .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وصل إلى إفساد أذواق الناس في طعامهم وشرابهم ، ومن ثم إفساد صحتهم وإرهاق أبدانهم عن طريق تقديم الأطعمة والوجبات التي لا تمت إلى فطرة الإنسان وطبيعته بصلة ، أو خلط القاذورات بالطعام وتقديمها للناس على أنها مشهيات ، وأنها من أسباب الحضارة ومعايشة العصر .

ورغم التقدم التكنولوجي الهائل في الغرب فإننا نجد الدول الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة ودول أوروبا كلها تقف عاجزة أمام بعض سنن الله الكونية مثل الفيضانات والأعاصير والثلوج ، وغيرها من الأسباب الأخرى ، حيث يصل الأمر إلى مرحلة توقف الحياة في كثير من الأحيان في هذه البلاد ، مما يعكس

هشاشة قدرة هؤلاء وعجزهم أمام هذه المظاهر الكونية .

فإذا كانت الحضارة هي الأسلوب الحياتي الإنساني الراقي الذي ينهجه الإنسان في علاقته بالكون والحياة ، فأي حضارة تلك التي يدعيها هؤلاء؟ وإذا كان ما يدعونه حضارة في تصورهم فإنها في طريقها للسقوط والفناء ، إن لم تكن قد سقطت بالفعل من واقع الأرقام والإحصاءات والوقائع والأحداث التي يسهل رصدها ، والتي يحوي هذا الكتاب جانباً موثقاً منها ، فالقشرة الهشة التي تغطي الحضارة الغربية إذا نفذ الإنسان من خلالها فإنه يجد خلفها مجتمعات منهارة ، وأمماً محطمة ، وما بقاء القيادة والريادة في طرفها إلا لأن غيرهم لم يأخذ بأسباب السيادة والريادة ، وحينما أخذوا بها في البداية دانت الدنيا لهم ، لكنهم حينما وصلوا إلى الدرك الأسفل الذي يعيشون فيه الآن بدأت أسباب الريادة والسيادة تأخذ طريقها إلى الزوال .

ورغم وجود كتابات عديدة من كتَّاب غربيين منصفين تحدثوا فيها عن معالم وأسباب انهيار الحضارة الغربية بسبب سقوط الفرد وانهيار الأسرة وتفكك المجتمع هناك ، إلا أن رؤية الأحداث والاطلاع على الصورة من الداخل من منظورنا كمسلمين يعكس شكلاً آخر من أشكال التقييم والرصد .

ومن خلال هذه الرؤية فإن هذا الكتاب هو رصد موثق لمظاهر الانهيار والسقوط للحضارة الغربية قمت به على مدى خمس سنوات تجولت فيها في كثير من الدول الأوروبية والولايات

المتحدة ، ورصدت من خلال أكثر من عشرين رحلة بعض مظاهر هذا السقوط ووثقتها من مصادر مختلفة حتى أقدمها إلى القارئ العربي ليعرف من خلالها ما الذي يدور خلف القشرة الخارجية للمجتمعات الغربية ، وبالتالي فهي رؤية من الداخل لهذه المجتمعات تزيد من مقدار التوثيق للمعلومات ، وتضيف إلى الجهود التي بذلها السابقون من الكتّاب والباحثين قدراً ولو ضئيلاً في هذا الاتجاه ، وتؤكد لبعض المخدوعين بمظاهر الحياة الغربية واقع هذه المجتمعات وحياة البؤس والشقاء التي يعيشونها بسبب بُعدهم عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، سائلاً الله تعالى أن ينفع بها كل قارئ ، وأن يجعلها في موازين الأعمال ، وأن يعافينا من الهفوات والذلات .

وعلى الله قصد السبيل .

أحمد منصور

١٥ ربيع الأول ١٤١٨ هـ

٢٠ يوليو ١٩٩٧ م

واشنطن .. عاصمة الخوف والجريمة

لم يزعجني شيء وأنا أسير في شوارع العاصمة الأمريكية واشنطن قرب منتصف الليل ـ مخالفاً بذلك كافة تعليمات الزميل د .أحمد يوسف مدير المؤسسة المتحدة للدراسات والبحوث ـ مثل هؤلاء المشردين الذين كنت أفاجأ بهم الواحد تلو الآخر وهم يخرجون إليّ من زوايا البنايات الفخمة والعمارات الشاهقة ، يطلبون مني بعض المال ، وحينما امتد بي المسير حتى البيت الأبيض ـ مقر إقامة الرئيس الأمريكي ـ وجدت كثيراً من هؤلاء وقد افترشوا الحديقة المواجهة له بملابسهم الرثة ، وأشكالهم المخيفة ، وهم ينامون في العراء في تحد ظاهر للغطرسة الأمريكية التي رغم رفعها لراية السيادة العالمية فإنها قَد عجزت عن توفير المأوى لهؤلاء الذين يبلغ عددهم حسب بعض الإحصاءات ١٥ مليون مشرد ، وقد عمد بعض هؤلاء أن يتخذوا مقر إقامتهم حول البيت الأبيض حيث يترقب العالم أجمع كل ما يصدر منه من قرارات تؤثر أو تغير من سياسات الدول والأنظمة ليقولوا للجميع : هذه هي أمريكا بكل ما فيها من غطرسة وسيادة ، وهذا هو النظام العالمي الجديد الذي تريد أن تتحكم أمريكا من خلاله في مقدرات العالم ورغبات الشعوب ، وهذا هو مقر لجان حقوق الإنسان التي تصم آذان الجميع بشعاراتها الرنانة وانتقاداتها الدائمة لبعض ما يحدث في بلاد العالم الثالث دون أن تنظر تحت

أقدامها لترى ما يحدث أمام البيت الأبيض .

قررت العودة إلى الفندق الذي نزلت فيه في قلب واشنطن مع مخاوفي من هؤلاء المشردين الذين يقفون في زوايا الشوارع يرمقونني وأنا أغير طرق المسير كلما لمحت أحدهم يقف في إحدى زوايا الشارع أو يترقب مروري به ، فصرت كالحيران الذي لا يدري أين يذهب؟ كلما ذهبت إلى جانب وجدت فيه بعض المشردين ، وترددت في أذناي تحذيرات أحمد يوسف كلما شعرت باقتراب الخطر مني ، ولم لا أخاف وواشنطن أصبحت أكبر عاصمة للجريمة في العالم ، وأصبح سكانها يستيقظون كل صباح على جريمة قتل أو سرقة أو غير ذلك من الجرائم التي ترتكب بشكل بشع ، وأصبح البوليس يخشى من دخول بعض الأحياء فيها ، لاسيما حينما يحل الليل ، حتى أن عدد جرائم القتل قد زادت خلال عام ١٩٩٣م على ٤٥٠ جريمة قتل ، مما حوَّلها ـ وهي عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية التي يهز اسمها بعض العروش المهتزة في أنحاء مختلفة من العالم ـ إلى شبح مخيف وكئيب ، سواء للمقيمين فيها أو الزائرين إليها ، الذي يعتبر سير أحدهم في الشوارع بعد العاشرة ليلاً خطراً محدقاً به يمكن أن يودي بحياته أو نهب ما في جيبه من أموال على أضعف تقدير ، وقد دفع هذا محافظ واشنطن في بداية نوفمبر ١٩٩٣م أن يطالب الكونجرس بالسماح بنزول الحرس الوطني (جناح خاص للأمن الداخلي) إلى شوارع واشنطن لضبط الأمن فيها والسيطرة على العصابات المنظمة التي تيسيطر على أحيائها المختلفة لتصبح للمخدرات والدعارة وكافة أشكال الفساد الأخرى .

عدت إلى الفندق منهكاً بعد منتصف الليل ومخيلتي تدور فيها أشياء كثيرة للربط بين الواقع الذي رأيته والسيادة التي تفرضها أمريكا على العالم ، والتناقض بين الصورتين ، غير أن قناعاتي لم تكن كافية ، فتوجهت نهاراً لرؤية المشردين حول البيت الأبيض ، والتقطت بعض الصور لهم ، إلا أن روح المغامرة بداخلي دفعتني إلى البحث عمن يغامر معي ويذهب بي إلى أحد أحياء الجريمة المخيفة في العاصمة واشنطن ، حتى أرى كيف أن حكومة الرئيس كلينتون التي تفرض هيمنتها على كثير من دول العالم لا تستطيع أن تفرض هيمنتها على بعض الأحياء القريبة من البيت الأبيض .

أنست في الأستاذ عبدالسلام سراج الدين ـ أحد الشباب العاملين في مكتب هيئة الإغاثة العالمية في واشنطن ـ أن يشجعني على هذه المغامرة ، وأسررت له بما في نفسي فنظر إليَّ وابتسم ، وقال : يمكننا أن نذهب بالنهار إلى هذه الأحياء ، بل يمكنني أن آخذك الآن إن شئت ، أما في الليل فالأمر خطر ورجال البوليس أحياناً يخشون دخولها ، فقلت له : وهل هذه الأحياء بعيدة؟ قال :كلا إنها على بُعد دقائق بالسيارة من الفندق الذي تقيم فيه وعلى بُعد دقائق أيضاً من البيت الأبيض .

أخذني عبدالسلام نهاراً إلا أنه لاحظ عدم اقتناعي بالعرض ، فقال لي :إذن سوف آخذك في الليل والله المستعان ، قلت له : ولكني لا أريد الذهاب في أول الليل ، بل أريد الذهاب قرب منتصف الليل ، قال : يا صاحبي هذه مغامرة ولكني سأحاول ترتيب الأمور .

كان عبدالسلام يستأجر سيارة ليموزين فخمة أحضرها وجاءني بعد الحادية عشرة ليلاً ، وقال : هذه أنسب سيارة ندخل بها أحياء السود المخيفة هنا في واشنطن لأنهم حين يرون هذه السيارات يعتقدون أن ركابها ـ لاسيما إذا كانوا اثنين ـ إما من رجال المخابرات (F.B.I) وإما من الأثرياء الذين يبحثون عن المخدرات ، وفي كلتا الحالتين فإنهم سيكونون حذرين في الاحتكاك بنا أو الاقتراب منا .

من أحد الشوارع المضيئة والتي بها شيء من الحركة رغم اقتراب منتصف الليل دخل بي عبدالسلام إلى شارع جانبي بدت الكآبة والأضواء الخافتة على جانبيه فأدركت أني دخلت أحد أحياء السود المعروفة بانتشار الجرائم بها ، ومن وسط الأماكن المظلمة وأركان البيوت الكئيبة كان السود وبعض الآسيويين ـ الذين يدخلون في صدامات دائمة مع عصابات السود على مناطق النفوذ في الأحياء ليلاً ـ يقفون على جوانب الطريق يرمقون سيارتنا التي كانت تمشي في هدوء ، فيما كان يقف على ناصية كل شارع اثنان أو ثلاثة أو أربعة يرمقوننا وينتظرون إشارة منا لنطلب منهم المخدرات إذا كنا ـ والعياذ بالله ـ من أهلها ، وأخبرني عبدالسلام أن لكل عصابة منطقة لا يستطيع أي من أفرادها تجاوزها إلى المنطقة الأخرى وإلا تسمع طلقات الرصاص ويسقط قتيل هنا وآخر هناك ، وقد تنشب أحياناً بعض المعارك الكبيرة التي يسقط فيها كثير من القتلى والجرحى وإذا جاء البوليس فإنه يأتي بعد انتهائها .

قلت لعبدالسلام : هل يمكن أن نتوقف؟ قال : لايمكن أبداً إننا نريد أن نخرج أحياء من هنا يا صاحبي فأشكالنا توحي بالطمع من

قبَل هؤلاء فينا لاسيما إذا اكتشفوا أمرنا ، وهم لهم لغة خاصة مع أصحابهم والمتعاملين معهم نحن لانعرفها . أنت يا صاحبي في واشنطن ، أكبر عواصم العالم في نسبة الجريمة ، وأنت الآن في قلب أحد أحياء السود المشهورة بالجريمة ، وأنت الآن قرب منتصف الليل ، وهؤلاء الذين تراهم على جانبي الطريق أفراد في عصابات محترفة تمارس كافة أشكال الجريمة ، وقتل الإنسان لديهم مثل شربة الماء ، ورجال البوليس أنفسهم يخشون دخول مثل هذه الأحياء في مثل هذه الأوقات ، ويكفي أني أطعتك وغامرت بك فدعني أخرج بك سالماً من هنا غفر الله لي ولك .

شكرت عبدالسلام على مغامرته معي وامتثلت طائعاً له مكتفياً بما رأيت ، وحينما أعادني إلى الفندق كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة والنصف ليلاً ، وقد أدركت حجم الخوف والرعب الذي تمتليء به واشنطن في الليل رغم أنها في النهار ـ وربما في النهار والليل ـ تصبح قبلة الملايين المبهورين بالتقدم الاستراتيجي والتقني والعسكري والتكنولوجي والإداري الذي لا يستطيع أن ينكره أحد ، لكن الجريمة حينما تنخر في المجتمعات مهما بلغت هذه المجتمعات من التقدم والازدهار فإنها توحي بانهيارها حتى وإن كانت تراقب العالم من الفضاء وتدّعي سلطانها عليه في الأرض ، ولهذا فإن علماء الاجتماع هنا ينذرون هذه المجتمعات وسقوطها على رؤوس أهلها إذا استمرت على هذه الحال .

لم أخبر الزميل أحمد يوسف وحتى كتابة هذه السطور وربما نشرها عن ذهابي قرب منتصف الليل إلى أحد أحياء الجريمة في

واشنطن للاطلاع على حقيقتها المخيفة ، ولكني أخبرته فقط عن مغامرتي الأولى وأني خرجت قرب منتصف الليل فمشيت في الشوارع حتى وصلت إلى مبنى الصحافة الوطني والبيت الأبيض ولم أكمل حديثي ، ففغر فاه واعتدل في جلسته وقال لي : هل حقاً ما تقول؟ قلت : نعم ، قال : ألم أحذرك يا صاحبي من النزول من الفندق بعد العاشرة ليلاً أو حتى ركوب سيارة تاكسي في هذا الوقت؟ فقلت له محاولاً إخفاء الرعب الذي كان يدب في جسدي حينما أواجه أحد المشردين : ربما كنت تبالغ قليلاً في تحذيراتك لي؟ فقال : ألم تواجه أي مشاكل أثناء مسيرك هذا؟ فقلت له : فقط بعض المشردين كانوا يعترضونني فكنت أبتعد عنهم مسرعاً ، لكن الشوارع كان يسير بها بعض الناس الذين كنت آنس بهم ، فاستغرق أحمد يوسف في الضحك وقال : أتعرف هؤلاء الذين كنت تأنس بهم يا صاحبي إن معظمهم من رجال العصابات الذين ينزلون في الليل إلى الشوارع ليلتقطوا أمثالك ويأخذوا ما في جيوبهم من مال ، أو الساعات التي يرتدونها أو أي شيء تطاله أيديهم ، ومن يعترض أو يرفض يكون ثمن رفضه رصاصة بنصف دولار تستقر في رأسه ، وكثير من هؤلاء المشردين أفراد في تلك العصابات ، وهم يعتمدون على السرعة الفائقة في تنفيذ عملياتهم بتسليط مسدس إلى الرأس والاستيلاء على ما معك ثم الاختفاء في ثوان معدودة وفي وقت قياسي ربما لا تستطيع معه مجرد الصراخ ، وقد رويت لك قصصاً كثيرة لبعض من نعرفهم حتى تكون حذراً .

ربت أحمد يوسف بعد ذلك على كتفي وقال : يجب أن

تعلم أنه قد كُتب لك عمر جديد ، فقلت في نفسي وما الذي سوف تقوله لي حينما تعلم أني ذهبت قرب منتصف الليل إلى قلب أحياء الجريمة ، وتفقدت أفراد العصابات ، وتجار المخدرات وهم يقفون تحت الأضواء الخافتة وفي زوايا الشوارع المظلمة ينتظرون زبائنهم .

خرجت سريعاً من حديثي مع نفسي وقلت له : إننا مـذ كنا صغاراً ونحن نسمع عن الجرائم في شيكاغو وليس واشنطن ، لذلك أرجو أن تساعدني في الذهاب إلى شيكاغو للاطلاع على أهم معالمها ، فقال أحمد يوسف : متى تحب أن تذهب؟ قلت : غداً . . قال : إذن فلتعد نفسك للذهاب غداً إلى شيكاغو .

شيكاغو .. والقنبلة الموقوتة في الولايات المتحدة

قبل الذهاب إلى شيكاغو توجهنا لصلاة الجمعة في دار الهجرة ـ أحد المراكز الإسلامية الكبيرة في العاصمة واشنطن ـ فوجدنا جنازة لأحد المسلمين فلما سألنا عن صاحبها قال لنا أحد المرافقين للجنازة : إنه شاب من فلسطين قتلته إحدى عصابات السود حينما كان يجتاز مناطقهم بسيارته واستولوا على ما معه ، وقد ترك خلفه طفلين ، وزوجته حامل في الطفل الثالث .

لفني صمتٌ عميق ظل يسيطر عليَّ بعد الجنازة وأنا أفكر في دوافع وأسباب الجريمة عند السود حتى أخذني الزميل أحمد يوسف من يدي بعد الصلاة وعلى باب الطائرة المتجهة إلى شيكاغو وقف يوصيني بالحفاظ على نفسي ، وألا أقاوم أي محاولة ابتزاز أو سرقة بالإكراه يمكن أن أتعرض لها في شيكاغو وأن أشتري نفسي بما في جيبي ، وألا أترك حقيبتي الصغيرة من يدي ولو لحظة واحدة ، وألا أخرج من مطار أوهير في شيكاغو إلا مع مرافقي الذي سينتظرني هناك .

التقيت بعد ساعة من البحث والعناء مرافقي في مطار أوهير ، الذي يعتبر أكبر مطار في العالم ، إذ يستخدمه سنوياً ٥٠ مليون راكب ، وشيكاغو مشهورة بالأرقام القياسية في أشياء كثيرة ، فمع وجود أكبر مطار في العالم بها من حيث عدد المسافرين يوجد

بها أكبر بحيرة في العالم ، وأعلى مبنى في العالم «سيزرتاور» الذي يبلغ ارتفاعه ١٠٤ طوابق ، وطوله ٥٥٠ قدماً ، وحين صعدت إليه كنت أنظر إلى شيكاغو كأني في طائرة تطير على ارتفاع منخفض ، كذلك يوجد في شيكاغو أعلى نسبة للجريمة في العالم ، وهي ثالث أكبر مدينة في الولايات المتحدة ، إذ يبلغ عدد سكانها ٨ ملايين نسمة نصفهم من السود والأقليات ، وحيث يوجد السود يوجد الفقر والاضطهاد والتفرقة العنصرية ، والمخدرات والبطالة ، ومن ثم توجد العصابات المسلحة ، وتكثر الجريمة ، وتعطي شيكاغو صورة واضحة لطبيعة المجتمع الأمريكي القائمة على العنصرية والتركيبة العرقية غير المتجانسة ، حيث يحرم على السود الإقامة في مناطق البيض ، بل حتى دخول بيوتهم لزيارتهم ، ويعيش السود في مناطق موحشة وكئيبة ذهبت إليها في الليل فوجدتها أكثر كآبة من المناطق التي زرتها في واشنطن .

فحينما قطعت شارع وسترن الذي لا يزيد عرضه على ثلاثين مترا ويفصل الحي العربي في شيكاغو عن حي السود ، شعرت أني دخلت إلى عالم آخر ، فلم أصادف شخصاً أبيض يمشي حتى بسيارته في مناطق السود ، وكان مرافقي يهدئ أمام بعض المحلات التي كانت تبيع الخمور ، حيث يتكاثر السكارى حولها في مناظر قبيحة وأشكال رثة ، حتى أطالعهم حيث تكون الخمر بداية فقدان الوعي ومن ثم بداية الجريمة ، ولم تنقطع عن أُذنيّ في ليل أو نهار أصوات سيارات الإسعاف والشرطة وهي تجوب المدينة إلى حيث مواقع الجريمة ، وحينما طلبت من مرافقي أن يأخذني في الليل إلى

أكثر مناطق شيكاغو شهرة في الجريمة ، أخذني إلى منطقة «بروجكت» حيث توجد عمارات سكنية ضخمة بنتها الحكومة الأمريكية للسود كنوع من المساعدة لهم بعد عدة عقود من المطالبة بحقوقهم ، وأصبحت هذه العمارات أكبر مستنقع للجريمة في شيكاغو ، حيث يتم تبادل إطلاق النار بل وقيام معارك بالأسلحة الأوتوماتيكية بين العصابات المختلفة عبر البنايات ، ورغم وجود نقطة للبوليس في وسطها إلا أن رجال البوليس لا يتدخلون فيما يحدث ، ويكتفون عادة بما بعد الجريمة .

ويعود احتراف السود للجريمة إلى القهر العنصري الذي لا يزالون يعيشون فيه من قبَل الأمريكيين البيض الذين عادة ما يقيمون مناطق تماس بينهم وبينَ السود تسكنها الأقليات الأخرى من العرب والمكسيكان ، ويصل اضطهاد البيض للسود إلى كافة أشكال الحياة في الولايات المتحدة ، بما فيها عدم توظيفهم في شركات ومؤسسات البيض وعدم دخولهم إلى أحيائهم ومطاعمهم ، حتى أن هناك عبارات مشهورة لازالت تعلق على أبواب المطاعم تقول : «ممنوع دخول السود والكلاب» ، ويقال إنها كانت قبل عدة عقود تضم اليهود أيضاً إلا أن النفوذ اليهودي في الإدارة الأمريكية خلال العقود الثلاثة الأخيرة قد رفع مكانة اليهود ونفوذهم في المجتمع .

هذا الامتهان والظلم والتفرقة العنصرية جعلت السود يشعرون بأنهم منبوذون من قبَل البيض وجعلت الإرث التاريخي للعبودية والاسترقاق يدفعهمَ إلى محاولة التميز والظهور في المجتمع في المجالات التي لا يتقنها البيض مثل الألعاب الرياضية المختلفة

والفنون والغناء والرقص ، ولذلك فإن أشهر نجوم أمريكا في هذه المجالات هم من السود ، والذي لا يستطيع أن يكون ملاكماً أو لاعباً أو ممثلاً أو مغنياً أو راقصاً أو فناناً فإنه يظل ضمن الطبقة المنبوذة التي تزيد على عشرين مليون أمريكي ، لذلك كانت أحداث لوس أنجلوس في عام ١٩٩٢م خير شاهد على النار المتأججة بين السود والبيض ، وكيف أن فتيلها يمكن أن يدمر الولايات المتحدة كلها وليس مدينة أو مدينتين ، فخلال ساعات كانت الخسائر في لوس أنجلوس بالبلايين ، ورغم أن الحكومة الأمريكية تشترط على المؤسسات والشركات التي تتقاضى مساعدات فيدرالية أن يكون اثنان بالمائة من العاملين فيها من السود والأقليات ، إلا أن هذه النسبة أيضاً تحوي كثيراً من الغبن والعنصرية ، ولاسيما إذا عرفنا أن الأقلية المكسيكية الأسبانية تضم أربعين مليوناً ، والسود يزيدون على عشرين مليوناً ، ومدينة مثل شيكاغو على وجه الاستشهاد تضم ثمانية ملايين نسمة نصفهم من الأقليات ، ونسبة عالية منهم من السود الذين يعيشون بطالة مقنعة تجعلهم محترفين في فنون الجريمة والمخدرات ، وتجعل الحكومة الأمريكية تتحمل قسطاً وافراً ـ كما يشير كثير من المراقبين الأمريكيين ـ في هذه الدوافع ، وقد مررت مع مرافقي على إحدى محطات البنزين في بروجكت ليريني حياة أصحاب المحلات التجارية في أحياء السود في الليل ، فرأيت البائع يضع مسدسه أمامه وهو متأهب لأي هجوم في أي لحظة ، ومع ذلك تحدث بصورة شبه يومية حوادث قتل لأصحاب المحلات بغرض السرقة ، ويقتل بمعدل نصف شهري أو كل ثلاثة أسابيع أحد العرب

في شيكاغو على أيدي السود ، حيث تضم الجالية العربية في شيكاغو حوالي ٧٥ ألف عربي ، يعمل معظمهم بالتجارة ، ويوجد شارع شهير في شيكاغو يضم العرب ، يدعى شارع ٦٣ ، كما تضم الجالية الإسلامية في شيكاغو حوالي ٣٠٠ ألف مسلم ممزقين مثل أقطارهم ، بل ربما أضعافها ، تنخر الخلافات والمشكلات في صفوفهم إلا من رحم الله ، وتمارس الفئات الضالة من البهائيين والأحمديين والبهاريين وغيرهم أنشطتها بحرية هناك .

شيكاغو التي تتحدث الأقليات المقيمة بها ٥٤ لغة غير الإنجليزية هي صورة من المجتمع الأمريكي المليء بالتناقضات والتركيبة العرقية المعقدة والنظرة العنصرية المدمرة ، وعصابات الجريمة المنظمة وجماعات السود المضطهدة التي يولد أبناؤهم فيرضعون من أمهاتهم ذل الاضطهاد والعنصرية والظلم من الرجل الأبيض ، وكل ما تفعله الحكومة الأمريكية هو امتصاص غضب السود ومدهم بالمساعدات والمساكن والإعانات الاجتماعية حتى تخفف من دوافع الجريمة والعنف لديهم ، لكنها لا تعالج جذور المشكلة أو تزيل أسبابها ، وتبقى شعارات المساواة وحقوق الإنسان والعدل الاجتماعي شعارات جوفاء يرفعها الغرب دون أن يستطيع تحقيقها على أرض الواقع .

اليوم الدامي في نيويورك

أدركت وأنا أجوب جنبات مبنى الأمم المتحدة في السابع عشر من نوفمبر عام ١٩٩٣م أنه لا أحد هنا يفهم أحداً سوى الدول الخمس دائمة العضوية في مجلس الأمن ، فقد كانت في عهد الحرب الباردة تستخدم الفيتو لإيقاف أي مشروع أو قرار يتعارض مع مصالح ونفوذ أي منها ، أما الآن فالكل يعزف على وتر النظام العالمي الجديد الذي لم تتحدد كثير من معالمه حتى الآن سوى أنه يعني تصاعد النفوذ والسيطرة الأمريكية على مقاليد أمور كثيرة لم تكن موجودة من قبل ، فأصبحت الدول الخمس دائمة العضوية تعزف على وتر واحد تقريبا ، ولاسيما بعد تقهقر سيادة معظمها عن المكانة التي منحت بها حق المقعد الدائم وحق استخدام الفيتو .

فمقعد بريطانيا هو الصورة الوحيدة المتبقية للإمبراطورية القديمة وعهد تشرشل ، وهو برهان واضح على تعريف وزير الخارجية البريطاني السابق دوجلاس هيرد لبريطانيا في ذلك الوقت ، بأنها دولة تتمتع في المحافل الدولية «بثقل أكبر من وزنها» .

ومقعد روسيا هو بقايا الاتحاد السوفييتي إحدى القوتين العظميين في العالم سابقا ـ لكنه بقي رغم تفكك الاتحاد السوفييتي إلى أكثر من ثمانين دولة وتقهقر روسيا لتصبح في مصاف الدول النامية .

أما مقعد فرنسا فيعود إلى امتلاكها السلاح النووي علاوة على سياسة قصر كواي دورساي الرئاسي التي يقال إنها تعتمد على التأكيد الشديد على تقديم فرنسا لمساهمات فريدة للحضارة الإنسانية على الرغم من أن هذه المساهمات أصبحت تثير السخط دائماً ولاسيما من شعوب العالم الإسلامي والدول الإفريقية التي تستنزف فرنسا ثرواتها .

أما الصين فهي الحاضر الغائب ، وبالتالي فإن الولايات المتحدة أصبحت تفرض سياستها وقراراتها على مجلس الأمن والأمم المتحدة دون منازع تقريباً ، وأصبح كثيرمن المراقبين والمحللين والكتَّاب والصحفيين يخلطون في كتاباتهم بين الأمم المتحدة والولايات المتحدة ، وربما أصابني شيء من هذا الخلط أثناء توجهي لمبنى الأمم المتحدة ، حيث قلت لسائق التاكسي دون قصد إلى مبنى الولايات المتحدة ، فاستغرب الرجل وقال لي : عفواً سيدي إلى أين؟ فقلت : إلى مبنى الولايات المتحدة ، فأعطى إشارة لليمين حتى يتوقف وأعاد سؤاله عليَّ فاستدركت وأفقت من الخلط الذي ملأ ذهني عن الأمم المتحدة ، وقلت له : عفواً أقصد مبنى الأمم المتحدة ، ثم استغرقت في الضحك واستغرق الرجل معي كذلك .

وبينما كانت موظفة العلاقات العامة في الأمم المتحدة تحدثنا عن مجلس الأمن كنت أراقب الموظفين والمندوبين الذين يجوبون طرقات المبنى والذين جاؤوا من كل جنس ولون ، كل يحمل قضايا بلده بين يديه ، حينها أدركت حقيقة هامة قرأتها في وجوه هؤلاء الذين لا يفهمهم أحد ، هي أنه ما من قضية عرفت طريقها إلى

جنبات هذا المبنى الذي يمتلئ بالفساد والبيروقراطية وخرج أصحابها بحل عادل أو حكم منصف ، كما أن جل القضايا التي تناقش هنا إن لم يكن كلها هي قضايا المستضعفين الذين لا يسمع صوتهم عادة ولا يفهم قضاياهم أحد ، ولا يملكون غير إحضار الملفات التي يجوبون بها أروقة هذا المبنى وقاعاته دون الحصول على شيء سوى قرارات لا تنفذ ، ووعود مليئة بالأباطيل ، أما الأقوياء فطريقهم معروف ، وسبلهم أشار إليها المتنبي من قديم حينما قال :

إنما أنفس الأنيس سباع

يتفارسن جهرة واختيالا

من أطاق التماس شيء غلاباً

واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

وكان مما استرعى انتباهي أنه ما من قضية من قضايا المسلمين دخلت هذا المبنى وعرفت طريقها إلى أروقته وقاعاته وملفاته منذ أنشيء في أعقاب الحرب العالمية الثانية ووجد أهلها حلاً منصفاً أو حكماً عادلاً لها ، وأنها جميعاً وضعت على طاولات مجلس الأمن والجمعية العامة ، فصدرت بحقها قرارات لم تنفذ ، ووعود لم تحترم ، وظلت تتقلص كل يوم وتنتقص ، حتى صارت قضية فلسطين التي دخلت كاملة بتمام عافيتها وتضاريسها وحدودها وجغرافيتها إبان اغتصاب اليهود لها عام ١٩٤٨م لتصل في النهاية إلى اتفاق هزيل وقِّع خارج مبنى الأمم المتحدة ، وحتى القرار الذي ظل الجميع يتشدقون به ، وهو القرار رقم ٢٤٢ والذي صدر في

أعقاب استيلاء اليهود على ما تبقى من أرض فلسطين عام ١٩٦٧م خرج علينا بطرس غالي ـ الأمين العام للأمم المتحدة وقتها ـ بتفسير خاص له يتيح لإسرائيل أن تضع يدها بنفس القرار على ما استولت عليه من أراض .

أما القرار رقم ٤٢٥ الذي اتخذه مجلس الأمن في عام ١٩٧٨م بإيفاد قوات دولية إلى جنوب لبنان للحفاظ عليه وسحب كل القوات الأجنبية منه ، فلم ينفذ القرار إلا على القوات التي كانت تسبب القلق للكيان الصهيوني ، وتستخدم الأرض اللبنانية منطلقاً لعملياتها الجهادية والفدائية ضد إسرائيل ، فأخرجت هذه القوات وخلا الطريق أمام إسرائيل التي قامت باجتياح الجنوب اللبناني عام ١٩٨٢م تحت سمع وبصر قوات الأمم المتحدة التي لازالت هناك حتى الآن ولا ندري لماذا؟

والوضع في قبرص لا يقل سوءاً بالنسبة للمسلمين عن الوضع في جنوب لبنان ، فمشكلة جزيرة قبرص والصراع بين القبارصة الأتراك المسلمين ، والقبارصة اليونانيين الأرثوذوكس بين أيدي الأمم المتحدة منذ عام ١٩٦٤م ، وكل ما تقدمه الأمم المتحدة هو دعم القبارصة اليونانيين على حساب القبارصة الأتراك المسلمين ، الذين يعتبرون في عزلة دولية منذ انفصال الجزيرة ، حيث لم يعترف بجمهوريتهم أحد سوى تركيا ، وآخر ما قدمه بطرس غالي لهم من حلول وقتها هو بتر أهم الأجزاء الاستراتيجية التي تخضع لسيطرة المسلمين وتسليمها لليونانيين لتتقلص المساحة التي تخضع لسيطرة المسلمين في الجزيرة من ٣٧٪ إلى ٣١٪ ، فرفض المسلمون هذا

العرض ، فأعلن بطرس غالي أمام المجتمع الدولي بأن القبارصة الأتراك المسلمين هم الذين يرفضون إحلال السلام في الجزيرة .

وكما اتهم بطرس غالي القبارصة المسلمين بأنهم هم الذين يرفضون إحلال السلام في الجزيرة بسبب رفضهم لمقترحات الأمم المتحدة ، فقد اتهم مسلمي البوسنة غير مرة بأنهم كانوا يرفضون المقترحات الأوروبية ومقترحات الأمم المتحدة ـ التي تفرغ البوسنة من محتواها كدولة ذات سيادة ـ ويتسببون في استمرار الحرب ، ومن ثمَّ استمرار المذابح التي يقوم بها الصرب والكروات ضدهم ، ورغم أن قضية البوسنة إلا أنها ضربت الرقم القياسي في عدد قرارات مجلس الأمن المتعلقة بها التي زادت على أربعين قراراً ، إلا أنها لم ينفذ منها شيء على أرض الواقع حتى من قوات الأمم المتحدة التي ربما لم يعرف كثير من جنودها لماذا جيء بهم إلى هذا المكان الذي يذبح فيه المسلمون أمامهم ليل نهار دون أن يجرؤوا حتى على الصراخ في وجه الصرب والكروات حتى يتوقفوا ، وظل صوت محمد شاكر بيه مندوب البوسنة لدى الأمم المتحدة يدين المجتمع الدولي ليل نهار ويناشد أعضاء مجلس الأمن بأن تتمعر وجوههم للحق مرة واحدة في تاريخ هذا المجلس دون جدوى ، وكما تحولت قضية فلسطين خلال خمسة وأربعين عاماً من قضية سيادة دولة إلى مجرد إعلان مبادئ لهيكل إداري هزيل لا يتعدى حدود الإدارة المحلية ، فقد تحولت قضية البوسنة من قضية سيادة دولة معترف بها في المحافل الدولية إلى هيكل فارغ من كنتونات ممزقة ليس له سلطة حتى على العاصمة سراييفو .

وبدا واضحاً أن قرارات مجلس الأمن الأربعين المتعلقة بالبوسنة لا قيمة لها طالما أن الضحايا من المسلمين ، وأن الدول الخمس دائمة العضوية لا رغبة لها في وجود دولة مسلمة في قلب أوروبا .

أما أكراد العراق فيعيشون وضعاً مأساوياً لا حدود له بعدما سحبت الأمم المتحدة رجالها الذين يقدر عددهم بمائتين وستة وثلاثين جندياً ، وتركتهم فريسة لصدَّام وجنوده بدعوى أنها عجزت عن تدبير نفقاتهم ومصروفاتهم التي لا تزيد على بضعة ملايين من الدولارات رغم إنفاق الأمم المتحدة أكثر من مليارى دولار على البوذيين في كمبوديا .

ولم يكن المبعدون الفلسطينيون في جنوب لبنان أكثر حظاً من الأكراد ، فقد رمت إسرائيل بقرارات مجلس الأمن عرض الحائط ولم تقبلها أو تنفذها كما لم تقبل غيرها من قبل ، ومازال نصف المبعدين في جنوب لبنان دون رعاية أو اهتمام .

أما الصومال فقد كانت من أكبر الصور التي تُظهر أن الأمم المتحدة قد صارت مؤسسة أمريكية ، وليس أدل على ذلك من استعراض القرارات التي صدرت بشأن الصومال ، ومن بينها القرار الذي عايشتُ صدوره في السابع عشر من نوفمبر ١٩٩٣م ، والذي يقضي بصرف النظر عن ملاحقة «عيديد» ومحاكمته ، بل ودعوته كممثل للشعب الصومالي في مؤتمر المصالحة المقرر عقده في أديس أبابا .

وقد دفع الموقف الأمريكي بطرس غالي إلى اتهام واشنطن بأنها تسعى لتحويله والأمم المتحدة إلى كبش فداء بسبب الفشل الذي مُنيت به القوة الأمريكية في الصومال على أيدي قوات عيديد .

أفقت من شرودي ـ في استعراض موقف الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن من قضايا المسلمين ـ على صوت عجوز اسكندنافية كان يبدو عليها رغم برودة الاسكندنافيين أنها حانقة على الأمم المتحدة أكثر مني ، فقد ألقت أكثر من سؤال استنكاري على الموظفة المرافقة لنا عن موقف الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن من مسلمي البوسنة ، لكن الموظفة أجابتها بهدوء عن تساؤلاتها ، وكأن لسان حال إجاباتها يقول لها : إنني لست الأمين العام ، ولكن الأمين العام يجلس في الطابق الثامن والثلاثين من هذا المبنى .

كانت جولتي في هذا المبنى المليئ بالبيروقراطية والفساد ، وانتهاك حقوق المسلمين وقضاياهم كفيلة بأن أصاب بالاختناق بعد عدة ساعات قضيتها فيه ، لذلك ما إن بلغت نهاية الجولة حتى خرجت مسرعاً لأتنسم من هواء نيويورك البارد ، وقصدت أول شرطي صادفته لأسأله عن أقصر الطرق المؤدية إلى مكتبة نيويورك العامة التي تلي مكتبة الكونجرس من حيث الأهمية ، وما إن أشار الشرطي إلى أقصر الطرق حتى خرج لي ـ ولا أدري من أين ـ أحد المشردين السود وقال لي وقد بدأ يمشي إلى جواري كأنما هو مرافق لي : هل تريد الذهاب إلى مكتبة نيويورك؟ فقلت له : نعم ، قال : سوف أدلك على الطريق ، قلت له : شكراً إنني أعرف الطريق؟

قال : ولكني أريد أن أساعدك ، فبدأ القلق يتسرب إلى نفسي ، وقبل أن أرد عليه فوجئت به يمد يده إلى حقيبتي ويقول لي : هات هذه حتى أحملها عنك ، فقبضت على الحقيبة بكلتا يدي وتراجعت خطوة إلى الوراء وتلفت يمنة ويسرة لعلي أجد من ينقذني من هذا البلاء الذي حل عليّ بعد بلاء الأمم المتحدة ، إلا أن الناس لم يكلفوا أنفسهم حتى مشقة النظر إليَّ ، بدأ الخوف يملأ نفسي وقبل أن أتكلم فوجئت به يقول لي : هل أنت مصري؟ قلت في نفسي لقد اكتمل البلاء ، وغاب عني كل شيء إلا تحذيرات الصديق الدكتور حسين إبراهيم ـ الذي يعيش في نيويورك منذ حوالي خمسة عشر عاما ـ حينما قال لي في الصباح : إذا كنت قد غامرت في واشنطن وشيكاغو فلا تغامر في نيويورك ، فالمشردون هنا يطلقون الرصاص أولاً ثم يفكرون بعد ذلك في الأسباب .

قلت للمشرد وأنا أحاول البحث عن ملجأ ، وما الذي عرَّفك أني مصري؟ قال : أستطيع بسهولة أن أتعرف على كثير من الجنسيات ، فقلت له : وأنا أحاول أن أبتسم بينما قلبي ينتفض في صدري : يبدو أنك خبير دولي ، ثم بادرته قائلاً وأنا أستنجد المارة من حولي بنظراتي دون أن يعيرني أحد أي انتباه : هل لي أن أساعدك؟ قال : نعم . . أريد مالاً ، فقلت له : هذا أمر بسيط فخبير دولي مثلك يستحق الكثير ومددت يدي في جيبي فأخرجت حفنة من الدولارات دفعتها إليه على أمل أن يقتنع بها وينفك عني ، وما إن استقرت الدولارات في يده حتى اختفى كالبرق ، بدأت بعدها ألملم زوايا نفسي وتنفست الصعداء ، ثم واصلت المسير مع بقايا من الخوف .

وحينما لقيني الدكتور حسين إبراهيم في الليل وجدته قلقاً ويادرني قائلا : حمدا لله على سلامتك لقد قلقت عليك كثيراً ، فقلت في نفسي : ومن الذي أخبره بما حدث لي فلم يكن معي أحد ، ولم أنو إخباره بما حدث ، لكننا على أي الأحوال في أمريكا بلد الأزرار والكمبيوتر ، فقلت له وأنا أداري بقايا الخوف الذي ملأ نفسي قبل ساعات : لقد وعدتك بالالتزام بتعليماتك في الصباح ، وبالتالي لم يكن هناك ضرورة لكي تقلق ، فقال لي : أما تابعت الأخبار؟ قلت له : لا . . ولم أتابعها؟ فقال : إن ما دفعني للقلق عليك هو أن الخبر الرئيسي في الأخبار أن هذا اليوم ١٧ نوفمبر ١٩٩٣م كان من أكثر الأيام دموية في نيويورك ، حيث قُتل خلال ساعات النهار عشرة أشخاص في أحياء متفرقة من المدينة ، بعضهم من السياح ، وهذا رقم مرتفع مقارنة بنسبة جرائم القتل الاعتيادية اليومية في المدينة ، ولأني خفت أن تغامر ولا تلتزم بتوصياتي لك فقد ساورني قلق شديد عليك بعد سماعي هذا الخبر ، فقلت : عشرة من القتلى اليوم؟ قال : نعم . . تذكرت المشرد الذي اشتريت نفسي منه بحفنة دولارات قبل عدة ساعات ، وقلت : الحمد لله أني لم أكن الحادي عشر .

جرائم الاغتصاب والقتل في الولايات المتحدة

التقرير الذي نشرته وزارة العدل الأمريكية في نهاية يونيو عام ١٩٩٤م حول معدلات الاغتصاب والجرائم في المجتمع الأمريكي تقرير مخيف ومرعب ، ليس لأنه تضمن إحصاءات أشارت إلى أن عدد الفتيات اللائي اغتصبن وهن دون الثامنة عشرة في العاصمة الأمريكية واشنطن وإحدى عشر ولاية أخرى خلال عام ١٩٩٢م ـ وهو آخر عام جمعت فيه إحصائيات حتى ذلك الوقت ـ قد بلغ عشرة آلاف فتاة ، وأن ٣٨٠٠ من هؤلاء كن دون الثانية عشرة فحسب ، ولكن لأن ٢٠٪ من هؤلاء الفتيات قد اغتصبن من قبَل آبائهن ، و٢٦٪ قد اغتصبن من قبَل أقارب لهن ، و٥١٪ قد اغتصَبن من معارف وأصدقاء للعائلة ، أما النسبة الضئيلة الباقية وهي ٤٪ فقط فقد تم اغتصابهن من قبَل أشخاص مجهولين .

وكان تقرير سابق أعده «مركز الضحايا الوطني» و«مركز الأبحاث ومعالجة ضحايا جريمة الاغتصاب في الولايات المتحدة» نُشر في إبريل ١٩٩٢م ذكر بأن ١٩٠٠ امرأة تتعرض للاغتصاب يوميا في الولايات المتحدة ، وأن واحدة من كل ثماني بالغات قد تعرضت للاغتصاب بالفعل ، ليكون إجمالي من تعرض للاغتصاب مرة واحدة على الأقل في حياتهن قد بلغ ١٢,١ مليون امرأة أمريكية على الأقل ، لكن المرعب في كلا التقريرين أن نسبة

عالية من المُغتصبات قد اغتصبن من قبل آبائهن أو أزواج أمهاتهن أو إخوانهن أو أزواجهن السابقين أو أقاربهن أو أصدقاء لعائلاتهن .

والأمر لا يقف عند حد جرائم الاغتصاب وتقاريرها المرعبة ، بل إن جرائم القتل تشكل رعبا مخيفا من نوع آخر يجعل سكان كثير من المدن الأمريكية يعيشون حالة من حظر التجول التلقائي تبدأ من غروب الشمس وحتى شروقها ، وهذا الأمر ليس قاصرا على المدن الصغيرة ، بل إن أكبر المدن الأمريكية مثل شيكاغو والعاصمة الأمريكية واشنطن يشكل دخول كثير من أحيائها بعد غروب الشمس مخاطرة عشتها بنفسي خلال زيارتي للولايات المتحدة في أكتوبر ونوفمبر ١٩٩٣م كما أشرت من قبل ، وقد أعلن مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي بأن عدد جرائم القتل المسجلة التي وقعت في الولايات المتحدة عام ١٩٩٣م قد بلغت ٢٤ ألف جريمة ، إلا أن إحصاءات رسمية أخرى أشارت إلى أن عدد القتلى قد بلغ ٣٨ ألف قتيل ، أما عدد جرائم القتل التي وقعت في العاصمة واشنطن وحدها فقد بلغ ٤٩٤ جريمة قتل .

وذكرت صحيفة (U.S.A. Today) أكبر الصحف الأمريكية انتشاراً في تقرير نشرته في يناير ١٩٩٤م بالاشتراك مع معهد جالوب ومحطة .C.N.N الإخبارية أن نسبة الجريمة في الولايات المتحدة تعتبر هي الأعلى بين بلدان نصف الكرة الغربي ، ففي الوقت الذي بلغت فيه النسبة بين كل مائة ألف شخص ٢ , ٣٧٪ في الولايات المتحدة لم تتعد النسبة ٣ , ٤٪ في إيطاليا ، و٥ , ١٪ في

السويد، و١,١٪ في ألمانيا، و٩٪ في فرنسا، و٩٪ في كندا، و٦٪ في المملكة المتحدة، و٥٪ في اليابان» .

ومن خلال رصد إحصاءات جرائم القتل التي تقع في المجتمع الأمريكي نجد أن العنصرية لها جانب هام في أسبابها، ففي تقرير نشرته صحيفة «الإندبندنت» البريطانية في ٢٠/ ٦/ ١٩٩٤م عن الجريمة في الولايات المتحدة قالت فيه بأن عدد الأمريكيين الذين قتلوا في مدينة (نيوأورليانز) وحدها خلال السنوات الخمس الماضية قد بلغ ١٥٠٠ أمريكي، بينهم ٣٨ فقط من البيض، وهناك نسبة مشابهة أيضا في العاصمة الأمريكية واشنطن، أما عدد القتلى من السود في الولايات المتحدة عام ١٩٩٢م فقد بلغ ١١ ألفاً و١٧٥ قتيلا، بينما لم يتعد عدد البيض ١٠ آلاف و٦٤٧ قتيلا على الرغم من أن نسبة السود في الولايات المتحدة لا تزيد على ١٢٪ من عدد السكان، وقد ذكر تقرير (U.S.A. Today) بأن جرائم القتل وحدها تكلف الخزانة الأمريكية سنويا ١٣٥ بليون دولار، وأن هذا الرقم يفوق بكثير ميزانية وزارة الدفاع الأمريكية .

ولعل هذا ما دفع الكونجرس الأمريكي في منتصف مايو ١٩٩٤م إلى التصويت على حظر استخدام ١٩ نوعا من السلاح تسببت في ٨٪ من نسبة جرائم القتل، إلا أن لوبي الأسلحة الشخصية يمثل ثقلا كبيرا في المجتمع الأمريكي ويضم حوالي ٣ ملايين تاجر سلاح، وله إمكانات مالية ضخمة تؤثر في صناعة القرار، حتى أن هذا اللوبي قدّم دعما ماليا إلى ١٥٠ مرشحا

للكونجرس في انتخابات ١٩٩٢م بلغ ٢,٧ مليون دولار ، وتشير الإحصاءات الرسمية إلى أن الأمريكيين يملكون ٢١١ مليون قطعة سلاح شخصي في الوقت الذي لا يزيد فيه عدد السكان على ٢٦٠ مليون نسمة .

وقد دفع الارتفاع الهائل في معدل الجريمة في الولايات المتحدة ٤٤٪ من الأمريكيين الذين شاركوا في الاستطلاع الذي نشرته (U.S.A. Today) في يناير ١٩٩٤م إلى التأكيد على أن الجريمة هي أخطر المشاكل التي تواجه البلاد حاليا ، أما جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكي السابق فقد ذكر في مقال نشرته صحيفة «الشرق الأوسط» في ٦/ ٣/ ١٩٩٤م بأن «جرائم العنف قد أضحت مرضا من أمراض الطفولة الأمريكية ويدرك الأمريكيون أن ثمة خطأ فادحا في مجتمعهم الذي تقع فيه جريمة قتل واحدة كل ٢٢ دقيقة ، وحادثة اغتصاب كل ٥ دقائق ، وحادثة سطو مسلح كل ٤٧ ثانية» .

أما البروفيسور جاك ليفين ـ وهو أستاذ في جامعة نورث اليسترن بولاية ماساتشو سيتش ـ فقد علق على الأرقام التي أعلنتها وزارة العدل الأمريكية عن جرائم القتل والاغتصاب قائلا : «إن هذه الأرقام تمثل الهدوء الذي يسبق العاصفة التي ستواجهنا في العقد المقبل» ، أما الصحفية الأمريكية «هيلسيان ستانسبري» ـ وهي صحفية أمريكية متجولة تنشر مقالاتها في أكثر من ٢٥٠ صحيفة أمريكية ولها مقال يومي يقرؤه الملايين في الولايات المتحدة ـ فقد

ذكرت في نهاية زيارة قامت بها للقاهرة في فبراير ١٩٩٤م قائلة : «إن المجتمع العربي (المسلم) مجتمع كامل وسليم ، وخليق بهذا المجتمع أن يتمسك بتقاليده التي تحكم حرية الفتاة وتمنع الاختلاط ، إن الحرية التي أعطيناها لفتياتنا وأبنائنا قد جعلت منهم عصابات أحداث ، وعصابات للمخدرات والرقيق ، إن الاختلاط والإباحية والحرية في المجتمع الأوروبي والأمريكي قد هددت الأسرة ، وزلزلت القيم والأخلاق» ، وتأتي هذه الشهادة من هذه الكاتبة الأمريكية لتؤكد أن التقدم التكنولوجي والتقني والحياة المرفهة والقوة العسكرية والهيمنة السياسية والاقتصادية لا تكفي لبقاء الأمم وتماسك المجتمعات ، وأن مجتمعا انهارت فيه الأسرة ولم تعد البنت تأمن فيه على نفسها من أبيها أو أخيها ـ وهم أولى الناس بصيانة عرضها ـ مجتمع يتجه نحو الهاوية وينحدر نحو السقوط ، وإن غدا لناظره قريب .

ضياع الشباب في بريطانيا

تبدو القشرة الخارجية الزائفة للمجتمعات الغربية صورة مثالية لكثير من الذين تبهرهم الأضواء دون اعتبار بما وراءها ، إلا أن التقدم التقني والحضارة التكنولوجية بحاجة دائمًا إلى من يحميها ويعمل على تطورها وتقدمها ، فالإنسان هو الذى هداه الله إلى هذه الأشياء وعلمه ما لم يكن يعلم ، لكن هذا التقدم والتطور تواكبه الآن موجة عارمة من الانحلال والبطالة والجريمة التى تهدد المجتمعات الغربية وتنذر بتفككها وانهيارها ، ولازلت أذكر المشردين الذين كانوا يقيمون في الحديقة المواجهة للبيت الأبيض ، وأحياء الجريمة والعنف في واشنطن ونيويورك وشيكاغو ، وكيف أن الداخل لهذه الأحياء مفقود والخارج منها مولود ، تلك الأحياء التى لا يبعد بعضها سوى عشرات الأمتار من البيت الأبيض في واشنطن أو مبنى الأمم المتحدة في نيويورك ، أما في بريطانيا فإن معدلات البطالة والجريمة والمخدرات واستهلاك الخمور بلغت بين الشباب في بريطانيا مدى مخيفًا ، فمن بين ستة تقارير رسمية معتمدة عن الجريمة والبطالة في بريطانيا زودني الأستاذ فادي عيتاني ـ مدير فرع هيئة الإغاثة الإسلامية عبر العالم في بريطانيا ـ بتقرير يحمل إحصاءات وأرقامًا مفزعة عن الوضع الذي آل إليه الشباب في بريطانيا .

وقد اقتصر معظم التقرير على الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والخامسة والعشرين ، ويبلغ عدد هؤلاء ٨ ,٧ مليون شاب وشابة يمثلون ٢ ,١٥٪ من عدد السكان ، ويتوزع هؤلاء عرقيًا على النحو التالي : ١٥٪ بالنسبة للبيض ، و١٨٪ للمنحدرين من شبه القارة الهندية ، و٢٤٪ للسود ، وتبلغ نسبة البطالة للأعمار بين ١٦ ـ ١٩ سنة للرجال ٢١٪ من إجمالي عدد الرجال العاطلين عن العمل في بريطانيا ، فيما تمثل النساء من نفس العمر ١ ,١٦٪ وتصل نسبة الشباب العاطلين عن العمل من عمر ١٦ ـ ٢٥ سنة ٣٢٪ من مجموع العاطلين عن العمل في بريطانيا ، وتمثل نسبة السود النسبة الأعلى حيث تصل نسبتهم ٣٨٪ فيما لا تتجاوز نسبة البيض ١٨٪ .

وعادة ما تؤدي البطالة إلى الفقر والتشرد ، فهناك ١٥٦ ألف مشرد من الشباب في بريطانيا الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦ و٢٥ عامًا ٤١٪ منهم لا يتلقون أية عناية ، وأكثر من نصفهم ليس معه نقود بتاتًا .

ومع البطالة والفقر والتشرد تنتشر الجريمة ، ففي عام ١٩٩٣م بلغ عدد المذنبين من الشباب ١٢٩ ألفاً و٥٠٠ شاب وشابة اقترف ٩٠ ألفاً منهم جنايات يعاقب عليها القانون ، كما تشير الإحصائيات إلى أن من ٧٠٪ إلى ٨٠٪ من المذنبين يعودون إلى السجن مرة أخرى خلال سنتين من خروجهم ، مما يعني احترافهم للجريمة .

أما التسيب والفلتان الجنسي فإن التقرير يؤكد أن ٦٥٪ من الشباب في سن ١٦ إلى ١٩ سنة يمارسون الجنس خارج نطاق الزواج ، وأن ٣١٪ يخافون من مرض الإيدز ، وأن ١٧٠ شابة تحت عمر ١٧ سنة تحمل سفاحًا كل أسبوع .

أما الخمور فإن ٥٣٪ من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين ١٦و١٩ سنة يشربون الخمور بصفة منتظمة ، كما أن ٢٨٪ من الرجال و٣٢٪ من النساء الذين تتراوح أعمارهم بين سن ١٦ و١٩ سنة يدخنون بانتظام ، أما الشباب بين سن ٢٠ و ٢٤ فإن ٣٨٪ من الرجال و٣٩٪ من النساء يدخنون بانتظام ، أما استهلاك المخدرات فإن ٦٢٪ من المدانين بسبب المخدرات سنة ١٩٩٠م كانوا دون سن الخامسة والعشرين ، ومن ٨٠ إلى ٩٠٪ من الجنايات كانت متعلقة بالمخدرات ، كما بلغت نسبة مدمني المخدرات الجدد الذين حصرتهم وزارة الداخلية ٤٥٪ من شباب دون الخامسة والعشرين ، ومن الطبيعي أن يدفع هذا الوضع البائس الشباب إلى الانتحار حيث بلغت نسبة الشباب المنتحرين ٨٠٪ من حالات الانتحار العامة في بريطانيا ، أما حوادث العنف فقد بلغت نسبة وفيات الشباب من سن ١٥ إلى ٣٤ سنة ٦١٪ من مجموع الوفيات .

هذه الإحصاءات المخيفة تكمن خطورتها في أنها بين الشباب الذين هم عماد الأمم وبناة مستقبلها ، وقد ذكَّرني هذا التقرير بزيارة قمت بها قبل عدة أشهر إلى أحد مراكز الرعاية الاجتماعية في بريطانيا ، وهالني نسبة الشباب السكارى والمدمنين المترددين على

المركز حتى أني وجدت الموظفين يتعاملون معهم من خلف زجاج واقٍ للرصاص ، لأن الكثير منهم تصيبه حالات الهياج والصرع بسبب الإدمان فيقومون بالهجوم على الموظفين بسبب عدم حصولهم على الأموال الكافية لجرعات الإدمان التى انتظموا عليها ، ومع خروجي محبطا من المركز فإن ما وجدته أثناء زيارتي لسويسرا كان شيئًا محزنا حيث كان المدمنون وغالبيتهم من الشباب يلتقون في إحدى الحدائق الكبرى في زيورخ ويتلقون جرعاتهم من كل أنواع المخدرات علنا تحت سمع الشرطة وبصرها ، كما كان المروجون يتجولون بحرية إلا أنه في بداية عام ١٩٩٦م أغلقت الحكومة الحديقة بعد انتقادات شديدة وجهت لها ، أما في إسبانيا فقد أغلقت بعض الجامعات والمدارس الثانوية أبوابها بسبب إحجام الشباب عن الإقبال على الدراسة واستكمال التعليم الجامعي .

إن هذه القشرة اللامعة للغرب ما هي إلا زيف لمجتمعات تحمل داخلها بذور فنائها ، وما بقاؤها إلا لاستمرار وجود بعض أسباب البقاء لديها ، لذلك فإن كل المقررات والمؤتمرات أصبحت تستهدف الآن شباب الأمة المسلمة ، لأن ضياع الشباب يساوي ضياع الأمم وضياع هويتها ومستقبلها .

سويسرا.. واحة المدمنين في أوروبا !!

حينما سألت أحد المسلمين المقيمين في العاصمة السويسرية «برن» أن يدلني على الطريق المؤدي إلى مبنى البرلمان قال لي وهو يضحك : أي نوع من المخدرات تريد؟ ، غرقت في الضحك معه قبل أن يصحبني إلى ساحة البرلمان التي لا تعتبر ملتقى السياسيين والبرلمانيين بقدر ما أصبحت ملتقى المدمنين وتجار المخدرات ، وقد أبلغني مرافقي أن الصورة قبل عام أو أكثر كانت رهيبة ، حيث كانت الساحة تغص بمئات المدمنين ومروجي المخدرات .

ورغم أن الحكومة السويسرية قد قامت خلال عام ١٩٩٦م بحملات لإبعاد المدمنين وتجار المخدرات من ساحة البرلمان الرئيسية حيث كانوا يشكلون صورة مزرية لدولة تتصدر قوائم الدول الأكثر رفاهية في العالم ، إلا أن الساحة مازالت ملتقى رئيسيًا للمدمنين والعاهرات ، وقبل أيام من زيارتي ـ وتحديداً في العشرين من أكتوبر ١٩٩٦م ـ طالبتْ لجنة رسمية سويسرية باتخاذ إجراءات عملية حول القصر الذي يضم البرلمان والحكومة في العاصمة برن ، وذلك لإبعاد العاهرات ومتعاطي المخدرات عن المقر الرئيسي للسلطة في البلاد .

واقترحت مجموعة عمل مؤلفة من ممثلين في العاصمة والإدارة الفيدرالية السويسرية إغلاق حدود القصر الفيدرالي الضخم في وسط

العاصمة برن ، حيث تقع مقار الوزارات والنواب بعدما أصبحت طرقات المبنى وساحاته مرتعاً خصباً لمتعاطي المخدرات ، وقد مشيت ما يقرب من ساعة مع مرافقي في ساحة البرلمان الخلفية وأروقته دون أن نجد شرطيًا يسألنا إلي أين أنتم ذاهبون؟ .

وعرضت هذه اللجنة أن تحوّل السطوح التي تحيط بالمبنى والتي تطل على أحد الأنهار إلى حدائق ، والتضييق على متعاطي المخدرات حتى لا يصلوا إليها حفاظاً على «كرامة البرلمان» !! .

وإذا كان هذا وضع العاصمة السياسية لسويسرا فقد وجدتُ وضع العاصمة الاقتصادية زيورخ وضعاً يصعب وصفه ، وسمعت ممن يعيشون في المدينة قصصاً ربما تكون لمن يسمعها أغرب من الخيال ، فبينما تطارد كل أو معظم دول العالم مدمني المخدرات ومروجيها قامت زيورخ بتجربة عالمية فريدة من نوعها هي رعاية مدمني المخدرات ، وقد مر هذا الأمر خلال السنوات العشر الماضية بمراحل مختلفة حيث كانت البداية في عام ١٩٨٧ حينما حددت سلطات زيورخ مكاناً معيناً يسمى «ليتن» على ضفاف نهر ليمات تحت جسر كورنهاوزبروك كساحة رسمية يلتقي فيها مروّجو ومدمنو المخدرات تحت رعاية الشرطة وحراستها ، وكانت فلسفة السلطات في ذلك الوقت هي حصر أعداد المدمنين ، وإقامة عالم خاص بهم يفصلهم عن غير المدمنين ، وسرعان ما تحولت الساحة إلى مسرح مكشوف يرتاده السياح من كل مكان حيث كان المئات يتوافدون على مدار الوقت من كل مكان ، ويقفون على جسر كورنهاوزبروك لمشاهدة صورة حية لا تتوافر في أي مكان في العالم لمروجي ومدمني المخدرات الذين كانت تتراوح أعمارهم بين

١٦ و٣٠ عاماً ، ـ أي زهرة الشباب ونضارته ـ وهم يتعاطون المخدرات بحرية تامة ويعيشون في عالمهم القذر الخاص بهم ، فقد كانت الأرض التي يعيش عليها هؤلاء حياتهم الكاملة عبارة عن مزبلة تضم عشرات الآلاف من الإبر والأكياس الفارغة والعوازل الطبية ، حيث كانوا يمارسون الجنس مثل الحيوانات في هذه الساحة المكشوفة ، أو تحت الجسر ، وسرعان ما تحوَّلت هذه الساحة إلى بؤرة ليس لمروجي ومدمني المخدرات في سويسرا وحدها ، وإنما في أوروبا عموماً ، وخاصة لمدمني ألمانيا والنمسا القريبتين من زيورخ ، ووصل عدد المدمنين الذين يلتقون بصورة شبه كاملة في تلك الساحة إلى ما يزيد على ألفي مدمن يوميًا وعشرين ألف مدمن بشكل عام ، ومما يبعث على السخرية هو قيام بلدية زيورخ ـ مساهمة منها في تيسير الإدمان لهؤلاء الذين انتشرت بينهم الأمراض الفتاكة وعلى رأسها الإيدز ـ بتوفير ١٢ ألف حقنة معقمة يومياً يتم توزيعها على المدمنين .

وكما في أي مكان في العالم كانت «ليتن» شبه محمية لها قوانينها الخاصة ، فكان الأقوياء يسيطرون على الكمية الكبرى من هذه الحقن المعقمة ثم يقومون بعد ذلك بتوزيعها على المدمنين بأسلوب لا يخلو من الابتزاز ، على غرار ما يحدث في توزيع المخدرات ، وكانت عصابات الترويج التي تدير المكان هي التي تضع القوانين وتنظم العلاقات داخل محمية المدمنين دون أي تدخل من البوليس الذي كان يكتفي بالحراسة الخارجية للمكان وبعض المحاولات لإبعاد السياح الذين يتجمهرون فوق الجسر طوال الوقت لمشاهدة ما أطلق عليه «المسرح المكشوف» ، حتى يتم توفير الأجواء

المريحة لرواد محمية «ليتن» من المدمنين وعدم إزعاجهم بهؤلاء الذين ينظرون إليهم وكأنهم يقومون بشيء غريب ! ! .

وحينما ضاق المكان لجأ المروِّجون والمدمنون في عام ١٩٨٩ إلى حديقة المتحف القومي القريبة من محطة القطار المركزية ، لكن قرب الحديقة من وسط المدينة والحي التجاري والفنادق الكبرى جعل الاعتراضات كثيرة على تواجد المدمنين فيها ، مما جعل منطقة «ليتن» هي الملاذ الطبيعي للمدمنين والمروجين ، وظل الأمر على ما هو عليه حتى أغسطس ١٩٩٤ حينما نشب صراع بين مروجي المخدرات الذين كانوا يتصارعون على الزبائن ، وكان الصراع هذه المرة مسلحاً في مواجهة أشبه ما تكون بالمواجهات التي تتم بين عصابات المافيا أدت في النهاية إلى مقتل أربعة من المروجين للأسف كلهم كانوا من العرب (ثلاثة من اللبنانيين وجزائري واحد) ، وكان سبب المشكلة هو اتهام المروجين اللبنانيين لزملائهم الجزائريين بأنهم قد ضربوا أسعار الهيروين وتسببوا في انخفاضها ، فبعد أن وصل سعر جرام الهيروين إلى ٤٠٠ فرنك فرنسي وهو ما يزيد قليلاً على ثلاثمائة دولار ، أخذ المروجون يتصارعون على الزبائن ويضاربون على الأسعار فيما بينهم ، فنشبت المعركة بالأسلحة النارية بين العصابات نتج عنها هذا العدد من القتلى ، وقد وجد البوليس السويسري نفسه مضطراً بعد نهاية المعركة للتدخل ، فالأمر قد خرج عن نطاق الترويج والإدمان إلى نطاق القتل والصراع المسلح الذي تحرص سويسرا على عدم امتداده إلى أراضيها ، وتم إلقاء القبض

على كثير من التجار والمروجين الصغار الذين اعترف بعضهم بأنه كان يجني أرباحاً شهرية تزيد على ثلاثين ألف دولار ، ولنا أن نتخيل حجم ما يجنيه الكبار ، كما اتخذت السلطات قرارات بإغلاق «محمية ليتن» وتم تفريق المدمنين الذين لجؤوا بعد ذلك إلى مناطق أخرى عديدة في زيورخ من أهمها المقابر أو حي لا بخس تراس أو «لونج تراس» أي الشارع الطويل ، حيث ينتشر البغاء والرذيلة والإدمان ، ويتواجد بعض أفراد الشرطة السرية . . ليس للملاحقة المدمنين وإنما للتأكد من عدم انضمام مدمنين جدد إليهم ، ورغم ذلك تشير آخر الإحصاءات التي نشرت في عام ١٩٩٦م إلى أن عدد المدمنين في سويسرا على المخدرات يتراوح بين ثلاثين إلى أربعين ألفاً يخضع آلاف منهم للرعاية ، حيث لجأت الحكومة في الخطوة التالية إلى إنشاء مراكز رعاية للمدمنين .

بدأت الخطوة الأولى في هذا الجانب في عام ١٩٩٢م ، حيث أنشأت الحكومة السويسرية في زيورخ ستة مراكز لرعاية المدمنين تقدم لهم القهوة والحساء والجرعات المخدرة مجاناً ثلاث مرات في اليوم ، حتى أني حينما ذهبت إلى مدينة بازل السويسرية دلني مرافقي هناك على المركز الحكومي الذي يرتاده المدمنون ثلاث مرات في اليوم للحصول على جرعات مخففة من المخدرات ، من المفترض أنها تساهم في علاجهم ، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر بقليل حيث كان موعد الجرعة الثانية قد انتهى وأغلق المركز أبوابه حتى يحين موعد جرعة المساء ، وقد وجدت هناك بعض

الشـبــاب المدمنين يـجلســون في انـتظار أن يفــتـح المركـز أبوابـه في الخامسة ، ولما استغربت وجودهـم قبل مـدة طويلة من الموعد قال لي مرافقي : من المؤكد أن الجرعة الثانية قد فاتهم موعدها ، ولأن المدمن يصبح عبداً لجرعة المخدر التي يتناولها فإنه لا يفكر في شيء في الدنيا إلا في الإبرة وهي تغــرز في ذراعــه لتنقلـه إلى أوهام الجنة الحــالمة والواحة الكاذبة حتى يحين موعد الجرعة التالية ، ويبلغ وضع بعض هؤلاء المدمنين أن تصـبح أذرعـهـم خـاليـة من أي مـوضـع يمكن أن توضع فيه الإبرة من كثرة الجروح وأماكن غـرس الإبر ، أما وجوههم وعـيونهم فـهي عـيون ووجـوه الأشباح وأهل المقـابر التي أصـبحـت مرتعاً رئيسياً لهم .

وتعـتـبـر نسبـة عـالية من الـذين يتـرددون على مـراكـز خـدمـة المدمنين هـم من الذين عـجـزوا عن توفـيـر الأمـوال للحـصـول على جـرعـات المخـدر من مـصـادرهـا الأصلية ، وتضطـر نسبـة عـاليـة من الفـتيـات ـ إن لـم يكن كل الفـتيـات المدمنات ـ لاحـتراف البـغاء حـتى يستـطعن توفـيـر الحـد الأدنى للجـرعـات التي يتناولنهـا من الهـيـروين على وجـه الخـصـوص ، وقـد دفـع هـذا الأمـر الحكـومـة إلى أن تدرس بجد بناء على طلبات من منظمات ومـؤسسات الرعاية الاجتماعيـة في سويسرا أن يعـامل المدمن معاملة المريض بحيث تتـحمل الحكومة مسـؤوليـة توفـيـر جـرعـات عـاليـة الثـمن مثل الهـروين والكـوكـايين للمدمنين ، باعـتباره دواء لهم ، بل إن بعض التـقـارير تشير إلى تحمل الحكومـة بالفـعل مـسـؤوليـة توفـيـر جـرعـات الهـيـروين والكـوكـايين

للمدمنين الميؤوس من شفائهم في المصحات ، وهذا ما يفسر بأن ١٠٪ من مدمني المخدرات في سويسرا يلقون حتفهم كل عام .

ورغم الانتقادات التي توجه إلى السلطات من هنا وهناك على أسلوب تعاملها مع مشكلة المدمنين والمخدرات حتى أصبحت المخدرات التقليدية مثل الحشيش والماريجوانا تباع في بعض المحلات ، إلا أن كل الحلول المطروحة تنقل المشكلة من سيء إلى أسوأ ، وقد دفع هذا الوضع كثيراً من مدن سويسرا مثل زيورخ والعاصمة برن أن تتبنى فنادقها المتوسطة والرخيصة مشروع سياحة المخدرات ، فأصبح المدمنون يفدون على هذه المدن من كل أنحاء أوروبا ليدخنوا الحشيش في الحدائق وفي الهواء الطلق ، بل وفي ساحة البرلمان تحت حماية رجال الشرطة ورعايتهم .

وفي وسط هذا الجو البائس الذي تعيشه سويسرا التي تعتبر واحدة من أجمل الدول في العالم من حيث طبيعتها الخلابة ونعم الله الوافرة لأهلها ، في وسط هذه الأجواء المزرية لا يخلو الأمر من طرفة ، حيث أصدرت محكمة «لوزان» الفيدرالية حكماً في الخامس عشر من يوليو ١٩٩٦م اعتبر سرقة المخدرات في سويسرا جريمة لا يعاقب عليها القانون ، وقد جاء هذا الحكم جواباً على طعن قدمه أحد مهربي المخدرات كان قد سرق من مهرب آخر حقيبة تحتوي على ٨ ,٤ كيلو جراماً من الكوكايين والحشيش في القطار الذي يصل بين أمستردام وزيورخ .

وكان المهرب الذي تقدم بالطعن قد حكمت عليه محكمة

مقاطعة سانت جال السويسرية بالسجن لمدة ثلاث سنوات لإدانته بالسرقة ومخالفة القوانين الخاصة بالمخدرات ، لكن محكمة «الوزان» حكمت بقبول استئنافه وعدم إدانته بالسرقة ، حيث رأى قضاة الاستئناف أن استيلاء المهرب ـ مقدِّم الطعن ـ على المخدرات ليس من الجرائم التي يعاقب عليها القانون ، معتبرين أن استيلاء المهرب على المخدرات من زميله ليس سرقة ، لأن جريمة السرقة حسب قانون العقوبات السويسري لا تنسب إلا إلى الممتلكات التي يحميها القانون ، والمخدرات ليست من بينها ، ومع طرفة الحكم والاستدلال ، فلم يجد المهرب منفذاً من الهروب من تهمة حيازة المخدرات والاتجار بها ، وحينما ذهبتُ إلى مدينة لوزان التي تعتبر العاصمة الثقافية لسويسرا والتي أصدرت محكمتها الفيدرالية هذا الحكم أخذني مرافقي إلى أحد الميادين الصغيرة في وسط المدينة حيث يلتقي مدمنو المخدرات من الشباب فوجدت كثيراً منهم يجلسون في وضع مزر ، وتكفي رؤية أي تجمع ولو صغير لمجموعة من مدمني المخدرات ، لأن تصيب الإنسان لفترة طويلة بالقرف والغثيان والإشفاق على هؤلاء الذين يقتلون الإنسانية ويئدون الحياة .

إن هذه الصورة التي أنقلها بلا رتوش تمثل جانباً من الانهيار الداخلي لما يسمى بالحضارة الغربية ، ولمجتمع منَّ الله على أهله بنعم كثيرة لكنهم حرموا أنفسهم من أعظم النعم وهي نعمة الإيمان بالله والركون إليه ، فالإنسان حينما يعتقد أن المال والتكنولوجيا والمادة

هي العوامل الرئيسية للتقدم والرفاهية يكون دون شك قد سار في طريق الخراب والدمار ، وهذه الصورة التي نقلتها هي صورة من داخل سويسرا التي تعتبر ثاني أعلى دولة في العالم من حيث الدخل المادي لسكانها ، وذلك حسب أحدث تقرير نشر عن التنمية البشرية في العالم لعام ١٩٩٦ ، لكن هذه الدولة ينطفىء بريق شبابها ، وينهار جانب أساسي من البنية الاجتماعية والنفسية في داخلها بفعل المخدرات ، فالتقدم التكنولوجي والدخل المالي المرتفع والرفاهية والتقدم ليست هي الطريق الوحيد لإسعاد الإنسان وتحقيقه لآدميته ورسالته ، ولعل عملية الانتحار الجماعي لطائفة «معبد الشمس» التي هزت المجتمع السويسري حينما وقعت في أكتوبر عام ١٩٩٤م ـ حيث أقدم أربعون رجلاً وامرأة على الانتحار الجماعي بشكل غامض ووفق طقوس غريبة ـ قد أصابت المجتمع الغربي كله بهزة عنيفة وكشفت حجم الزيف الذي تغطيه قشرة الموارد المالية العالية والتقدم التكنولوجي ، تلك القشرة التي تخفي وراءها إنسانية معذبة ضائعة تترقب من ينقذها وينتشلها من هذا الضياع .

سقوط المجتمع الإيطالي !

رغم أن إيطاليا هي إحدى الدول الصناعية السبع الكبرى بما يعني أنها إحدى الدول الغنية التي تتمتع بالرفاهية ، إلا أن الوجه الحقيقي لإيطاليا يختلف كثيراً عن ذلك ، فالفساد السياسي والاجتماعي والخلقي وعصابات المافيا بأنواعها وأشكالها المختلفة تنخر في كل أركان الدولة وزواياها ، بما يجعل الصورة من الداخل تتجه في حقيقتها إلى الفناء والدمار ، فإذا كانت مواطن الفساد في الدول الغربية لها أماكنها المعروفة لمرتاديها فإن الوضع يختلف في إيطاليا ، حيث أصبحت الشوارع كلها منتدى للفسق والدعارة على مدار الساعة وفي معظم الأماكن ، وأصبحت العصابات التي تنخر بفسادها في كل أركان الدولة تجلب هؤلاء الفتيات من كل أنحاء الدنيا وتقذف بهن إلى شوارع روما وميلانو وكل المدن الأخرى في صورة مقززة تؤكد أن هذا المجتمع في طريقه إلى الفناء المحتوم ، وأقسى مايصيب الإنسان بالكآبة أن يرى الرذيلة في كل شارع وعلى قارعة كل طريق حتى أنه أصبح من المستحيل أن تسلك شارعاً نظيفاً في طريقك الى هنا أو هناك ، ومما يؤكد أن مثل هذه المجتمعات تسير نحو الفناء هو إشاعة الفاحشة بشكل مقزز بين الناس ، فبينما كنا نمر بالسيارة عبر أحد الشوارع الكبرى في روما ، وإذ بساحة مليئة بأشباه العرايا والسيارات كأنما هي سوق ، فاستعذت بالله وطلبت من

مرافقي أن يسرع لتجاوز المكان وهنا ألقى عليّ مرافقي بقنبلته التي أصابتني بالكآبة لأيام حيث قال : إن كل من في هذه الساحة لسن من النساء؟ وإنما هم من الشواذ ، وأغلبهم من الرجال ، حيث أصبحت التكنولوجيا تخدمهم الآن عن طريق الهرمونات لتصبح صورهن وأشكالهن أشكال النساء ، لكنهم في الحقيقة ليسوا كذلك ، وقد أقام هؤلاء منظمة رسمية تدعى «رابطة الشذوذ الكبرى» وهؤلاء ـ والعياذ بالله ـ يتم استئجارهم مثل العاهرات تماماً من قبل الشواذ مثلهم وللأسف فإن قوانين البلاد تحميهم بل إنهم قاموا بمظاهرتين كبيرتين خلال الفترة الماضية للمطالبة بحقوقهم ، كانت الأولى في بولونيا عام ١٩٩٥ ، أما الثانية فقد قاموا بها في نابولي في يوليو ١٩٩٦ وساروا شبه عرايا في شوارع هذه المدن على مرأى من الناس .

والغريب أن التعري في إيطاليا أصبح إحدى الطرق للوصول إلى مواقع التأثير السياسي ، فإحدى الممثلات استطاعت الوصول إلى البرلمان بعدما كانت تجوب الشوارع شبه عارية وهي تروّج لحملتها الانتخابية ، أما إحدى الممثلات الإيطاليات اللاتي كن مشهورات بأفلام التعري فقد وصل زوجها إلى منصب رئيس الوزراء في يوم ما ، وفي سبتمبر ١٩٩٦م حينما أعلن أومبيرتو بوسي ـ زعيم رابطة الشمال ـ عن انفصال شمال إيطاليا الغني عن جنوبه الفقير ، خرجت مظاهرة كبيرة من الممثلات الإيطاليات في روما للاعتراض على قرار بوسي ، وفي ميدان «مونت سيتوريو» الرئيسي حيث يقع مبنى البرلمان في العاصمة روما رفعت

المتظاهرات لافتات كتبن عليها «لا إسفاف أكثر من الاستخفاف . . بالوحدة» واعتراضاً على الإسفاف قمن جميعاً بالتخلي عما يستر أجسادهن ، ووقفن عاريات في الميدان العام أمام الناس جميعاً ، بل أمام الشرطة كذلك التي تحمي البرلمان . وبسبب جنون التعري ، الذي يسيطر على الإيطاليات ابتلاهن الله بسرطان الجلد الذي تفشى بينهن مثل الطاعون ، حتى إن آخر الإحصاءات في عام ١٩٩٦م أشارت الى زيادة معدلات ارتفاعه بينهن بنسبة ٣٠٠٪ وذلك حسب مصادر معهد الأمراض الجلدية الإيطالية ، وقد دفع هذا الأمر الحكومة إلى رصد مبلغ ٤٠٠ مليار ليرة إيطالية لمواجهة خطر سرطان الجلد ، الذي بدأ يفتك بهن دون أن تكون هناك نتيجة ملموسة حتى الآن لتضاؤل نسبة الإصابة .

أما آخر صيحات الفساد الخلقي في إيطاليا فهو الإعلان في سبتمبر ١٩٩٦م عن تشكيل أول نقابة رسمية دولية لتبادل الزوجات ، وفور الإعلان عن تشكيل هذه النقابة بلغ عدد المسجلين فيها ستة آلاف زوج وزوجة ، فيما أكد صاحب المشروع أن العدد سيصل خلال فترة وجيزة إلى عشرين ألفا ، والعجيب أن مثل هذه المشروعات الوضيعة تجد من يقنن لها القوانين ويسن لها التوصيات في مجتمع أصبح كل يوم يبتكر من وسائل الإفساد والتدمير مايعجل بفنائه ، فإيطاليا تشهد منذ سنوات انخفاضاً واضحاً في النمو السكاني يجعلها مهددة تدريجياً بالانقراض لسبب بسيط هو أن الفرد يدمر بشكل رسمي ومن ثم فالأسرة تنقرض ولا مكان للتزاوج ولا للأطفال ، لأن المجتمع الغربي في عمومه يربي أبناءه

على الأنانية ، والأنانية تعني لديهم عدم تحمل مسؤولية الغير ، حتى لو كانت زوجة أو أطفالا ، ولذلك فإن الحياة أصبحت لديهم شيئاً من العبث والشهوات والضياع على مدى كافة مراحل العمر ، ويبدو أن هذا الأمر يريح السياسيين ومن بيدهم زمام الأمور هناك ، حيث يمارسون نوعاً من الفساد السياسي الذي لا نظير له ، ففي أقل من أربع سنوات منذ عام ١٩٩٢ وحتى عام ١٩٩٦م تم حل ثلاث برلمانات وأجريت ثلاثة انتخابات في إيطاليا ، أما المرشحون دائما فهم نجوم الفساد في المجتمع ، حتى صار الناخب الإيطالي لايعرف من يختار ومن الذي سينقذه من المستنقع الذي يعيش فيه ، فالمافيا تضرب بجذورها في كل أركان الدولة ومؤسساتها حتى إن هناك أمام المحاكم الآن أكثر من رئيس وزراء سابق يحاكم بتهم الفساد والعلاقة بعصابات المافيا ، ووراء قضبان السجون مئات السياسيين فيما آلاف آخرون يمارسون حياتهم بحرية في أركان وزوايا الفساد ، ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى نهاية عام ١٩٩٦م تناوبت على الحكم في إيطاليا ٥٥ حكومة بمعدل عشرة شهور تقريبا للحكومة الواحدة ، مما يعني أن معدل الفساد السياسي لا يقل عن معدل الفساد الخلقي والإنساني والاجتماعي الذي تعيشه البلاد ، وأن مايسمى بالحضارة والتقدم والتكنولوجيا ليست سوى غطاء مزيف يخفي وراءه الصورة الحقيقية لطبيعة الحياة الفاسدة في تلك البلاد ، فقد يجد الإنسان رفاهية مريحة ، وتقدماً تكنولوجيا مفيداً ، ودخلاً مادياً جيداً ، لكنه حينما يفتقد الإنسانية والآدمية والأخلاق والقيم والفطرة التي فطر الله الناس عليها ، ويرى الرذيلة في كل

مكان ، والفساد في كل ركن وزاوية ، فليعلم أن الفناء هو مصير تلك المجتمعات ، فالحضارة أسلوب حياة وليست هي التقدم التقني والتكنولوجي ، والذين يحلمون بالهجرة إلى تلك المجتمعات والحياة فيها فإنهم يحلمون بالهجرة إلى الفناء ، وصدق الله العظيم إذ يقول : «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً» .

اضطهاد النساء في أمريكا وأوروبا

يستطيع كل من تتاح له الفرصة للاحتكاك بالمجتمعات الغربية من داخلها أن يلمس مدى البؤس والشقاء الذي وصل إليه النساء هناك ، ومدى حجم العقد النفسية والدمار الأخلاقي والاجتماعي الذي تعيشه المرأة في هذه المجتمعات ، بعدما فقدت المرأة أنوثتها ودورها الحقيقي وخرجت تركض في الشوارع مثل الرجال ، فأصبحت تعمل وتساهم في الإنفاق على البيت وتحمل وتلد وترضع وتنظف الأطفال وترعاهم وتقوم على شؤون البيت واحتياجاته لتجد نفسها في النهاية تعيش في ظلم واضطهاد ، لأن زوجها سرعان ما ينصرف عنها إلى أخرى لا تحمل هذه الأعباء فيؤدي هذا إلى تفكك الأسرة وانهيارها ومن ثم تفكك المجتمعات وتلاشيها ، وهذا ما ينحدر إليه المجتمع الغربي الآن ، بل إن بعض المجتمعات مثل المجتمع الأمريكي بدأت فطرة الإنسان فيه تنقلب فأصبحت المرأة هي التي تخرج وتعمل ، فيما الرجل يجلس في البيت يرعى شؤون الأطفال وحاجات البيت ، وهذا ما أكدته صحيفة «كريستيان ساينس مونيتور» الأمريكية في تقرير نشرته في شهر ديسمبر ١٩٩٦م ، حيث أكدت الصحيفة أن «أرباب الأسر الأمريكية من العاملين في مختلف المهن يعانون من عدم تمكنهم من التوفيق بين التزاماتهم الأسرية وحاجاتهم إلى تحقيق النجاح المنشود

في مجال عملهم ، الأمر الذي يلقي بظلاله على علاقة هؤلاء بأطفالهم» ، وأشار التقرير إلى أن «ظاهرة ذهاب الأمهات إلى العمل وبقاء الآباء في المنازل تشكل تهديداً خطيراً على حياة الأسر الأمريكية» .

ونقلت الصحيفة عن البروفيسور جوين نادين أستاذ علم الاجتماع في كلية أوكتون في دس بلينس بولاية إلينوي الأمريكية : «إن قضايا مثل ميزانية الأسرة والنظام والعمل المنزلي وتوازن القوة في الزواج بدأ يتفاوض حولها الزوجان لإعادة الترتيبات الأسرية كلها من جديد» ، كما أشارت دراسة أخرى إلى أن ثلاثا من بين كل أربع أسر أمريكية تعيش حياة مفككة ، إما بسبب الانفصال أو الطلاق أو ظروف العمل التي فرقت الأبوين ، وهذا أمر تكون له انعكاساته المدمرة على نفسيات الأطفال ، وعلى نفسيات النساء على وجه الخصوص ، ولذلك فإن الأنانية التي هي محور حياة الغربيين كثيراً ما تدفع الرجل إلى أن يهجر المرأة إلى غيرها إذا فكرت في الحمل والولادة لأن معنى ذلك مجيء أطفال وتحمل أعباء أسرية يهرب الجميع منها لأنها تحرمهم من حياة الملذات والفردية التي يعيشونها ، وأذكر أني حينما كنت أنتقل في رحلة بالطائرة بين جنيف وروما كانت تجلس إلى جواري فتاة سويسرية ، وحينما أكدت على المضيف أني قد طلبت مسبقاً وجبة طعام خاصة للمسلمين ، سألتني الفتاة قائلة : هل أنت مسلم؟ قلت : نعم ، وكان هذا مدخلاً لحديث طويل حول الحياة الاجتماعية في

الإسلام ، والحياة الاجتماعية والأسرية في الغرب ، وكشفت الفتاة في حديثها عن بؤس نفسي تعيشه المرأة في الغرب عموماً لأنها تظل تفتقد شيئين رئيسيين وتظل تركض وراءهما طوال حياتها دون أن تدركهما :

الأول : هو الاستقرار العاطفي والأسري ، وهو لا يتحقق إلا بالزواج ، أما حياة الرفقة التي انتشرت بين الغربيين ، فقد جعلت الزواج أمراً لا يفكر فيه إلا القليل من الناس وبحسابات معقدة كتلك التي أشار إليها البروفيسور جون نادين في حديثه إلى صحيفة كريستيان ساينس مونيتور الذي أشرنا إليه مسبقاً ، ولذلك حينما حدثتني تلك الفتاة عن حياتها الاجتماعية وكيف أنها تركت بيت أسرتها في الثامنة عشرة من عمرها وتتنقل من وقتها من رفيق إلى آخر حتى استقرت بها الأمور منذ عامين مع رفيق جديد ، فسألتها : أما تفكرين في الزواج به؟ قالت باستغراب ولمَ نتزوج؟ قلت حتى تكون لكم أسرة وأولاد؟ قالت : «نحن نعيش سوياً ولا حاجة لنا للأولاد ، كما أني لم أبلغ الثلاثين بعد ولازالت أمامي متع كثيرة في الحياة أريد أن أحققها ، أما الأسرة والأطفال فهي مسؤولية لم أفكر فيها بعد ، حتى وإن ألحت عليّ مشاعر الأمومة أن يكون لي طفل فيمكنني الحصول عليه دون زواج» .

وهذا الأمر للأسف أصبح يدخل في إطار إعلانات تعلنها بعض النساء الغربيات أنهن يردن معاشرة رجل به مواصفات معينة لأجل الحمل فقط ثم تنتهي مهمة الرجل ، وليس هذا الأمر قاصراً

على عموم الناس ، بل إن ابنة الرئيس الفرنسي شيراك وضعت في نهاية عام ١٩٩٦م طفلاً من غير زواج ومن أب غير مُعلَن في الوقت الذي كانت تعمل فيه سكرتيرة لوالدها حتى أثناء حملها دون أن يكون هناك أي حرج لرئيس دولة كبرى من وضع ابنته ، وهذا ما وصلت به الحضارة الغربية بأهلها وبالتالي فمن الصعب إن لم يكن من المستحيل على المرأة في الغرب أن تشعر بالاستقرار العاطفي الأسري في ظل هذا الواقع .

أما الجانب الآخر فهو الاستقرار الاقتصادي ، فالحياة الغربية حولت الإنسان إلى آلة ، ومع غياب الأسرة وعائل الأسرة يغيب الاستقرار الاقتصادي للمرأة فتعيش في دوامة تفضي بها في النهاية إلى الأمراض النفسية والعصبية التي تبدأ بكراهية الولد المراهق الذي يريد أن يعتدي عليها وهي طفلة في الثانية عشرة في المدرسة ، ثم بالأب الذي يخرجها من البيت وهي في الثامنة عشرة حتى تعتمد على نفسها ، ثم في المرافق الذي لا ينظر إليها إلا على أنها مصب لشهواته يبدلها ويغيرها وقتما شاء ، ثم في الزوج - إن تزوجت - الذي يجبرها على المشاركة في مصروفات البيت وفي العمل والحمل والولادة وتربية الأطفال ورعايتهم وتنظيف البيت ورعاية شؤونه ثم يهجرها بعد ذلك إلى غيرها ، هذه الحياة البائسة للمرأة الغربية جعلت شياطين الغرب بعد عجزهم عن إعادة الكيان إلى الأسرة الغربية يفكرون في تدمير المجتمعات المتماسكة في الشرق وأهمها المجتمعات الإسلامية باعتبار الفرد والأسرة هما عمادها

الرئيسي ، ولـذلك قاموا تحت شعار الأمم المتحدة بإقامة ٧ مؤتمرات عالمية في الفترة من ١٩٧٥م وحتى ١٩٩٦م بهدف تدمير الأسرة في العالم الإسلامي تماماً كما دمرت في الغرب عن طريق تدمير المرأة ودفعها للخروج للعمل والمناداة بالحرية والمساواة مع الرجل .

فعقد في المكسيك مؤتمر المرأة الأول في عام ١٩٧٥م ، ومؤتمر المستوطنات البشرية الأول في كندا عام ١٩٧٦م ، ومؤتمر المرأة الثاني في كوبنهاجن في عام ١٩٨٠م ، ومؤتمر المرأة الثالث في كينيا عام ١٩٨٥م ، ومؤتمر السكان في القاهرة عام ١٩٩٤م ، ومؤتمر المرأة الرابع في الصين عام ١٩٩٥م ، ومؤتمر المستوطنات البشرية الثاني في تركيا عام ١٩٩٦م ، وهدف هذه المؤتمرات في عمومها هو تفتيت المجتمعات التي لازالت متماسكة في العالم وأهمها المجتمعات الإسلامية ، فالدول الغربية تنهار الآن اجتماعياً وأسرياً بشكل سريع يتضح من خلال انخفاض معدلات النمو السكاني بها ، ومن ثم فإن نشر الإباحية والإجهاض وخروج المرأة للعمل في المجتمعات الإسلامية ، ومن ثم قلة الاهتمام بالأسرة والأولاد سوف يؤدي إلى انهيار المجتمعات الإسلامية تماماً كما انهارت المجتمعات في الغرب ، ولذلك فقد قام كثير من الجمعيات في الدول الغربية لتطالب بإنصاف المرأة الغربية وإنقاذها من الاضطهاد الذي تعيش فيه ، وتحذير المجتمعات الإسلامية من الانزلاق وراء هذه الدعوات ، وهذا ما جعل الأمريكية «دالي أدلياري» رئيسة «جمعية الأمهات الصغيرات» تصرخ بأعلى صوتها في المؤتمر الدولي للسكان الذي

عقد في القاهرة في سبتمبر ١٩٩٤م محذرة المسلمين من الانزلاق وراء الدعوات الهدامة التي يروِّج لها هؤلاء قائلة : «لقد دمروا المجتمع الأمريكي وجاؤوا الآن بأفكارهم للمجتمعات الإسلامية حتى يدمروها ويدمروا المرأة ودورها فيها» أما السيد بيل شيروين رئيس «جمعية الحق في الحياة الدولية» فقد قال عن الذين يدعون إلى تحديد النسل وتدمير الأسرة : «إن هؤلاء ضد الحياة ، ولا يريدون للبشرية أن تنمو . . . إن الذي يحركهم ويدعمهم هم الساسة الكبار في أمريكا لنشر مبادئهم في كل أنحاء العالم . . . وإن هدفهم هو القضاء على الإنجاب بشتى الطرق» .

إن هذه الحقائق تدفعنا إلى إدراك حقيقة الإنصاف الذي تعيشه المرأة المسلمة ، وحقيقة الاستقرار العاطفي والأسري والاقتصادي الذي يكفله الإسلام للمرأة ، وحقيقة الاضطهاد والظلم الذي تعيشه المرأة في الغرب ، وبالتالي فإن الفائز في النهاية ليس الذي يملك الإمكانات المادية والتقدم التكنولوجي ، ولكن الفائز من يسلك طريق الفطرة التي فطر الله الناس عليها .

انهيار الأسرة في الغرب

مع اعتبار الأسرة هي الوعاء الحاضن للفرد والوحدة الرئيسية لمكونات المجتمع ، أصبح تهديد الأسرة بالفناء مباشراً في المجتمعات ، وخلال الأعوام الخمسين الماضية أي في أعقاب الحرب العالمية الثانية بدأ مفهوم الأسرة وقيمها تتلاشى شيئاً فشيئًا داخل المجتمعات الغربية ، وأصبح نجاح الفرد من الناحية الاقتصادية سواء كان رجلاً أو امرأة هو الشغل الشاغل والهدف الرئيسي لدى الجميع ، وأصبحت الأسرة والأطفال لا تعني لدى الرجل سوى أعباء والتزامات اقتصادية لا يريدها ، كما أصبحت عائقا يقف أمام شهواته ونزواته ورغبته في أن يكون كل يوم مع عشيقة وليس مع زوجة تربطه بها وشائج المودة والرحمة التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها ، والمرأة في المقابل أصبحت كذلك ، وحينما تغلبها عاطفة الأمومة تلجأ إلى أي صديق أو رفيق أو حتى عابر سبيل لتحمل منه ولداً ربما لا يراه أبوه فيما بعد ، فقط لتشبع هي غريزة الأمومة في نفسها بغض النظر عن الخلل الهائل الذي أصبح هذا الأمر يسببه في المجتمعات الغربية ، وهذا ما تشير إليه التقارير الصادرة عن المؤسسات الغربية المهتمة بهذا المجال ، ولن أستطرد في بيان الحقائق حول هذه القضية الخطيرة التي يغفل عنها كثير من المبهورين بالحضارة الغربية ، وإنما أترك المجال لأحدث تقريرين حصلتُ عليهما

في هذا المجال ، أحدهما يتحدث عن انهيار الأسرة داخل الولايات المتحدة ، والأطفال الذين يولدون خارج إطار الزواج مما أدى إلى انهيار القيم العائلية ، وقد نشرت هذا التقرير صحيفة (U.S.A. TO-DAY) الأمريكية في عددها الصادر في ٢٨ يناير عام ١٩٩٧م أما الآخر فإنه يتحدث عن انهيار الأسرة في أوروبا والأطفال الذين يولدون خارج إطار الزواج ، وأثر ذلك على انهيار المجتمع الأوروبي ، وقد نشرته مجلة (NEWSWEEK) الأمريكية في عددها الصادر في ٢٠ يناير ١٩٩٧م ، ولن أعرض هنا نص التقريرين ، وإنما أهم ما ورد فيهما ، يقول تقرير (U.S.A. TODAY) :

[تشهد معظم مناطق العالم اليوم اندثار العائلة التقليدية ، فقد شهدت الفترة ما بين ١٩٦٠ ـ ١٩٩٢م تضاعف عدد الأمهات من دون زواج ، واللواتي تتراوح أعمارهن بين ٢٠ ـ ٢٤ عاما ، وتضاعف عدد الأمهات بدون زواج اللواتي تتراوح أعمارهن بين ١٥ ـ ١٩ عاما أربع مرات ، وتأتي الولايات المتحدة في المرتبة السادسة من قائمة البلدان الرائدة في هذا المجال ، كما أن البلدان النامية والدول الفقيرة تشهد بدورها أيضاً ارتفاعاً في معدلات الطلاق التي تضاعفت في بكين خلال السنوات الأربع المنصرمة ، بل أصبحت ظاهرة انتشار البيوت التي تعولها المرأة أو تقدم ٥٠٪ أو أكثر من دخلها هي القاعدة .

ويُعزى تفشي هذه الظاهرة في العالم إلى أسباب مباشرة وهي أن النظام الاقتصادي السائد حالياً في العالم لا يتلاءم وقيم

العائلة المصغرة التقليدية ، وذلك مثلما كانت الثورة الصناعية قبل قرنين غير منسجمة تماماً مع قيم العائلة الكبيرة التقليدية .

ففي أمريكا يتقاضى ٣٤٪ من كافة الذكور الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٢٥ ـ ٣٤ عاما مرتبات أقل مما تتطلبه إعالة أسرة مكونة من أربعة أفراد ، بحيث تبقى فوق خط الفقر ، وفيما تأخذ أجور الذكور في الانخفاض إلى أدنى مستوى ، نشهد ارتفاعاً مطرداً في كلفة إعالة الأسرة ، فقد أضحى الأبناء بحاجة إلى تعليم بُكلفة أغلى يمتد لفترة أطول من أي وقت مضى إذا أريد لهم النجاح في خضم النظام الاقتصادي العالمي الحالي ، ويبدو أنه من الناحية الاقتصادية فإن غالبية الرجال باتوا مقتنعين بعدم جدوى التفكير في تكوين أسرة طالما لن يكونوا قادرين على إعالتها .

وتخضع المرأة لضغوطات هائلة لأن الحالة الاقتصادية لبلدها توجه إليها رسالة مفادها «عليك الكد للحصول على لقمة العيش» في حين أن الأعراف والتقاليد الثقافية القديمة توجه إليها رسالة أخرى مفادها «امكثي في بيتك واعتني بطفلك» ، إنها اليوم تحت وطأة الضغط لأنها مضغوطة أصلاً .

إن أفراد العائلات يقللون اليوم من حجم الإعانات التي يقدمونها لذويهم ، حيث يرون أن حاجتهم إلى العائلات باتت غير ضرورية بالنسبة لهم لضمان بقائهم الاقتصادي ، ولم يعد الرجال متحمسين للوفاء بالتزاماتهم الأسرية للمحافظة على الروابط العائلية لأن ذلك يرفع من مستواهم المعيشي ، بل إنهم يميلون إلى الاختيار ما

بين تكوين عـائلة دون الرغبة في الأبوَّة ، أو بين الطلاق والعزوف عن دفع النفقة ، أو ما بين الهجرة إلى الدول الصناعية ثم التوقف بعد فترة قصيرة عن عدم إرسال النفقة إلى عائلته التي تركها وراءه في بلده الأصلي ، ومن بين العائلات التي يوجد فيها أطفال يجب أن ينفق عليهم ، يعتبر الرجل في ٢٥٪ من هذه العائلات غائباً .

ولا تستطيع المرأة الاستفادة من الإعانة الاجتماعية إلا إذا لم يكن في بيتها رجل ، وغالباً ما يكون المستوى الاقتصادي للأطفال داخل دور الرعاية الاجتماعية التابعة للدولة أقل من مستواهم الاقتصادي لو بقوا في حضن أسرهم المالكة .

وقد أصبحت القيم اليوم تخضع لحقائق اقتصادية ، وبات نجاح الفرد أهم من العائلة حسب نتائج استطلاعات الرأي العام ، بل أخذ التنافس بين الأفراد يتنامى على حساب الترابط الأسري ، وأصبح وجود «خيارات» هو ديدن الجميع وليس بقاء «الأواصر» الأسرية ، وحسب المنطق الرأسمالي فإن الأولاد لم يعودوا يمثلون «محور الربح» بل أصبحوا «محور التكاليف» .

ويكمن الحل الطبيعي في تكوين أسرة أصغر حجماً مكونة من أقل عدد ممكن من الأولاد ، وفي حالة وجود الأولاد فإن الآباء يقضون معهم وقتاً أقل بنسبة ٤٠٪ من الوقت الذي كانوا يقضونه معهم بل ٣٠ عاماً ، ومع خروج المرأة إلى العمل أصبح أكثر من مليوني طفل دون سن الـ١٣ متروكين في البيوت بدون رقابة من طرف شخص بالغ سواء قبل ذهابهم إلى المدرسة أو بعد عودتهم

منها ، ولم يعد هناك في الواقع من يعتني بالأطفال على نحو سليم ، بل تُركوا وحدهم لأن تكاليف السهر عليهم قد تلتهم معظم مرتبات الأمهات وتجعل الهدف الأساسي للخروج إلى العمل غير مُجدٍ .

ومن الناحية التاريخية ، لم يكن الأب الوحيد ولا الأم الوحيدة القاعدة في أي مجتمع ، بيد أن الأبوّة قد انتهت من الناحية الاقتصادية ، وتتعرض القيم العائلية لهجوم شرس اليوم ، ليس بسبب برامج الحكومات التي تشجع العزوف عن تكون عائلات ، وليس أيضاً بسبب ما تطرحه وسائل الإعلام من أفكار تحط من مكانة الأسرة في نفوس الناس ، ولكن بسبب النظام الاقتصادي في حد ذاته ، ذلك أنه لن يسمح ببقاء الأسرة في قالبها القديم بحيث يكون هناك أب يجلب معظم دخل العائلة ، وأم تقوم بمعظم واجبات السهر على الأولاد .

وقد انقرضت العائلات بعائل واحد من الطبقة الوسطى] .

كان هذا تقرير (U.S.A. TODAY) الذي تحدث عن الوضع في الولايات المتحدة ، أما تقرير (NEWSWEEK)الذي تحدث عن الوضع في أوروبا ، فأهم ما جاء فيه :

[هل هناك في أوروبا من يؤمن حتى الآن بمؤسسة الزواج؟ لقد انطلقت الشرارة الأولى لظاهرة العزوف عن الزواج في المنطقة الاسكندنافية ، وقد أصبح الجيل الأول من الفتيات الرافضات للزواج جَدّات الآن ، كما أن تفشي ظاهرة وجود أمهات بدون زواج قد يغيّر من النمو السكاني للقارة الأوروبية ، وأن بعض هؤلاء

الأمهات فتيات مراهقات لا يعتقدن أن هناك خطأ ما في الحمل غير المخطط ، وأن عدداً قليلاً جدا من هؤلاء الأمهات يقررن تولي رعاية أطفالهن لوحدهن ، كما أن معظمهن قد يعيش مع الأب البيولوجي لأطفالهن ـ على الأقل لفترة معينة ـ ولكنهن يفضلن الزواج به .

ففي السويد ، أكثر من نصف عدد الأطفال يولدون خارج إطار الزواج الشرعي ، وأما في فرنسا وإنجلترا فإن كل طفل من بين ثلاثة يولد بواسطة أبوين غير متزوجين ، وفي الواقع لم يعد هناك من يتخلى عن أطفاله ويعرضهم للتبني ، ففي أوروبا المعاصرة اليوم يشارك أطفال العريس والعروس في مراسيم زواج الأبوين .

وفي الدانمارك فإنه نظراً لتفشي ظاهرة التعايش بين الآباء الوحيدين والأمهات الوحيدات أخذت دوائر الإحصاء تعتبرهم أزواجاً بغض النظر عن عدم مشروعية العشرة القائمة بينهما تحت سقف واحد ، أما في إيرلندا حيث سيتم السماح بالطلاق للمرة الأولى في هذه السنة ١٩٩٧م ، وحيث الإجهاض محظور إلى يومنا هذا ، فإن عدد الأمهات غير المتزوجات في المدن أعلى بكثير من عدد الأمهات المتزوجات ، وأصبحت ظاهرة وجود أمهات غير متزوجات أمراً عادياً جداً في كافة أنحاء القارة الأوروبية ، والأمر المثير للجدل أن معظم الآباء بدون زوجات أخذوا يطالبون بأن يعاملوا بالمساواة مع النساء في معارك احتضان الأولاد .

وتزداد هذه الأيام المخاوف من أن انتشار ظاهرة الأم الوحيدة من شأنه أن يجلب آفات اجتماعية عديدة منها الفقر ، وتعاطي

المخدرات ، وتدني مستوى التعليم ، وتفشي البطالة ، وقد شهدت الولايات المتحدة في السنة الماضية انخفاض معدل حالات الولادة خارج الزواج الشرعي بواقع ٤٪ ، وذلك للمرة الأولى منذ ٢٠ عاماً ، بيد أنه في الأحياء الفقيرة فإن من بين كل خمسة أطفال فإن أربعة منهم مولودون من أم غير متزوجة .

وفي إيرلندا فقدت الكنيسة الكاثوليكية معظم نفوذها الأدبي ، بل أخذت في البروز حركة نسائية قوية تفرض رأيها على هذه الكنيسة ، كما شهدت فرنسا في عام ١٩٩٧م احتفال الرئيس جاك شيراك بولادة حفيده غير الشرعي من ابنته .

ولعل إلقاء نظرة عامة على نسبة الولادة لأطفال خارج إطار الزواج من خلال التقارير الرسمية لعام ١٩٩٤م تعطي مؤشراً عن حجمها الكبير :

السويد ٥٠٪ ، والدانمارك ٨, ٤٦٪ ، والنرويج ٩, ٤٥٪ ، وفرنسا ٩, ٣٤٪ ، والمملكة المتحدة ٣٢٪ ، وفنلندا ٣, ٣١٪ ، وهولندا ١, ٣١٪ ، والنمسا ٢٦٪ ، وإيرلندا ٧, ١٩٪ ، والبرتغال ١٧٪ ، وألمانيا ٤, ١٥٪ ، ولوكسمبورج ٩, ١٢٪ ، وبلجيكا ٦, ١٢٪ ، وإيطاليا ٣, ٧٪ ، واليونان ٩, ٢٪ .

ويبدو أن كلاً من الضرائب وسياسات الرعاية الاجتماعية في كثير من البلدان تشجع العزوف عن الزواج ، حيث تتقاضى الأمهات غير المتزوجات شهرياً إعانات اجتماعية بواقع مبلغ يتراوح

ما بين ٤٠٠ ـ ٥٠٠ دولار أمريكي عن الطفل الواحد ، وأن الزواج سيحرمهن من هذه الإعانات ، وفي كوبنهاجن تعتبر الفتاة الحامل في سن المراهقة مدللة إلى حد بعيد من جانب دوائر الشؤون الاجتماعية ، حيث تستفيد من برامج التدريب على الأمومة والرعاية الصحية والتغذية ، فضلاً عن برامج التدريب المهني ودورات عن قوانين الرعاية الاجتماعية في الدانمارك والمزايا التي ستستفيد منها أثناء وبعد الحمل .

وتلجأ الفتيات في إيرلندا إلى الإنجاب طمعاً في البيوت الحكومية ، وبصفة عامة فإن الحكومات الأوروبية المحافظة تتقبل فكرة الأمومة بدون زواج ، وبعد أن شهدت أوروبا انخفاضاً حاداً في معدلات الولادة بدأ الساسة اليمينيون يشجعون الإنجاب ، بل واجه النظام التقاعدي في بلدان مثل ألمانيا خطر الإفلاس نتيجة سيادة معدل الصفر لحالات الولادة والويلات التي جلبتها على هذا النظام ، بل أخذت بعض البلدان إلى الدعوة إلى التمسك بالقيم العائلية ، كما هي الحال في بريطانيا ، حيث خطف حزب العمال بزعامة طوني بلير هذه الفكرة من حزب المحافظين] .

هذا هو واقع الأسرة في الغرب كما جاء في تقارير نشرتها اثنتان من أكبر الصحف والمجلات في الولايات المتحدة ، وهذا كفيل بدق ناقوس الخطر وبيان مؤشرات الانهيار السريع لهذه المجتمعات .

دوافع أمريكا لفرض السلام في البوسنة

بعد أربعين شهرًا من الشجب والاستنكار ، والسياسة المتضاربة ، والتصريحات المتعارضة للموقف الأمريكي تجاه ما يحدث للمسلمين في البوسنة والهرسك ، غيَّرت الولايات المتحدة سياستها تجاه البوسنة في يوم وليلة ، وأخذت زمام المبادرة حتى من الدول الأوروبية التي طالما ادعت أنها المعنية وحدها بما يدور في البلقان ، وأصبح الوسيط الأمريكي ريتشارد هولبروك ، ورفيقه انتوني ليك - مستشار الرئيس للأمن القومي - يتحركان بين مدن وعواصم دول البلقان ، دون حاجة لمرافقين فرنسيين وبريطانيين ، بل وحتى المرافق الروسي الذى كان يظهر في مثل هذه التحركات فقط لاستكمال عناصر الصورة لم يكن له وجود هو الآخر .

وكانت سياسة الولايات المتحدة تقوم طوال أربعين شهرًا على تحميل أوروبا مسئولية ما يحدث في البلقان ، وأن الولايات المتحدة ليس لها مصالح هناك تدفعها للتدخل أو المغامرة ، كما أن هذه منطقة نفوذ أوروبي وعلى دول أوروبا التعامل معها بالشكل الذى يناسب مصالحها .

ولم يستطع النقد اللاذع للموقف الأمريكي المتخاذل - طوال أربعين شهرًا - من داخل الولايات المتحدة وخارجها أن يغيِّر شيئًا من

أخلاقيات السياسة الأمريكية التي لا ترى للأخلاق ـ حسب رأي المراقبين ـ مكانة في تعاملها مع أحداث وقضايا العالم ، وقد أدى التحرك الأمريكي الأخير إلى اعتقاد بعض السطحيين بأن تغييرا طرأ على أخلاقيات السياسة الأمريكية دفع القائمين عليها إلى القيام بتحركاتهم الأخيرة وأخذ زمام المبادرة ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فحقيقة الموقف الأمريكي مما يدور في البوسنة من أحداث عبَّر عنه الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون ـ وعادة ما يفيق الساسة الأمريكيون بعدما يكونون خارج دائرة صناعة القرار ، ويعضهم يقول الحقيقة في لحظة عذاب الضمير ـ في كتابه الأخير «بعد السلام» : «إنها الحقيقة البشعة التي لا يمكن لأحد إخفاؤها ، فلو كان سكان سراييفو هم أغلبية مسيحية أو يهودية ما كان هناك أحد في الغرب ليسمح بمحاصرتها إلى الحد الذى يجعل القصف يطال الأماكن المكتظة فيها ، كما حصل في مجزرة السوق في ١٤ فبراير ١٩٩٤م ففي تلك الحالة فإن الرد الغربي سيكون سريعًا وسيباركه الجميع» ويواصل نيكسون اعترافاته قائلا : «إن حصار سراييفو كان يمكن أن تتمخض عنه بعض المعطيات الإيجابية ، لو تعلم الغرب منه شيئين اثنين : أولا : أن الشعوب المتحضرة لا يمكنها أن تكون محابية في شجبها للعدوان والمجازر ، ثانيًا : إن كون أمريكا تُمثل القوة العظمى الباقية فإن حدوث أية أزمة لا يمكن أن يكون بمنأى عن مصالحها . . إن متطلبات القيادة تفرض عليها الآن الدفاع عن شعب البوسنة ، وإن التقاعس سيجعل منها طرفًا متحيزًا ، وسيساعد على

تعميق صورة العداء لنا كوننا حماة لليهود والنصارى . . ومتخاذلين وقساة عندما يكون المسلمون هم الضحايا» .

هذه الرؤية التي تحدَّث عنها نيكسون تعرض حقيقة الموقف الأمريكي ليس طوال الأشهر الأربعين من عمر الحرب في البوسنة فحسب ، وإنما حتى في دوافعه وتحركاته الآنية في البوسنة ، فالضربات الجوية لم تشكل أية حماية للمسلمين من قبل ، كما أنها لن تشكل لهم أية حماية في المستقبل ، فقد كانت محدودة الأثر ، يؤكد ذلك إصرار الصرب وقتها على موقفهم الرافض لسحب أسلحتهم من حول سراييفو ، كذلك تصريحات مسئولي حلف الأطلسي وتأكيدهم بأن الضربات الجوية التي لا زالت توجه للصرب لا تعدو كونها ضربات تأديبية ليس لها أي تأثير على البنية التحتية للصرب .

وبالتالي فإن التحرك الأمريكي نابع من استراتيجية الاحتواء والمصالح الخاصة للولايات المتحدة ، وهذا هو االذي دفعها لأخذ زمام المبادرة والتدخل لفرض السلام في البلقان ، ولعل أهم هذه الدوافع نوجزها في عدة نقاط :

أولا : حرص إدارة كلينتون على تسجيل نقاط نجاح في السياسة الخارجية بعد الانتقادات الحادة التي تعرض لها منذ وصوله إلى السلطة بسبب الأداء الرديء والمتخبط لإدارته سواء في البلقان أو تجاه قضايا العالم الأخرى .

ثانيًا : مخاوف كلينتون من توريط الولايات المتحدة في إنزال

قوات برية في البوسنة سواء لإجلاء قوات الأمم المتحدة المحاصرة أو للمساعدة في الحفاظ على المناطق الآمنة بعد تهديد فرنسا وبريطانيا بسحب قواتهم من البوسنة ، ومن ثم فإن الضربات الجوية تعتبر خطوة وقائية من هذه الورطة .

ثالثًا : سعي الولايات المتحدة لأخذ زمام المبادرة في البوسنة من أوروبا بعدما مرّغ الصرب أنف الغرب في التراب .

رابعًا : سعي الإدارة الأمريكية إلى امتصاص الغضب الداخلي في الولايات المتحدة بعد استخدام الرئيس كلينتون لحق الفيتو ضد قرار الكونجرس بتزويد مسلمي البوسنة بالسلاح ، ومخاوفه من الدخول في مواجهة جديدة مع الجمهوريين في الكونجرس .

وإضافة إلى ذلك يبدو أن الولايات المتحدة قد تبلور لديها تصور لخريطة جديدة في البلقان تقوم على دول ودويلات وكانتونات نظيفة عرقيا ، وهذا هو أخطر الدوافع ، وقد بدأت خطة الولايات المتحدة الفعلية في البوسنة بإعطاء الضوء الأخضر لكرواتيا بتنظيف إقليم كرايينا من الصرب حتى من هؤلاء الذين يعيشون فيه منذ قرون ، وقد تم ذلك خلال ثلاثة أيام فقط طرد خلالها مائة وخمسون ألف صربي إلى داخل البوسنة ، عندها تأكد وجود تواطؤ دولي في تسليم قوات الأمم المتحدة مدينتي سربرينيتسا وجيبا البوسنيتين المسلمتين إلى الصرب قبلها بأيام رغم أنهما كانتا تحت حماية الأمم المتحدة ، ليكونا موطنًا للصرب الجدد الذين هُجِّروا

بعد ذلك من كرايينا .

غير أن الملفت في خطة الولايات المتحدة عدم وضوح معالمها بشكل كاف حتى الآن ، سوى أنها تسعى لقيام دول وكنتونات نظيفة عرقيًا ، وهذا أمر من المستحيل تحقيقه في منطقة متداخلة عرقيا بشكل مكثف ويحمل سكانها ثأرات قديمة لبعضهم البعض عمرها قرون وليس سنوات ، كما أن هذا الأمر سوف يؤدي إلى عواقب مستقبلية وخيمة لأوروبا كلها ولاسيما في البلقان ، فهناك توتر عرقي في كوسوفو حيث يتحكم ١٠٪ من الصرب في مصير ٩٠٪ من السكان المسلمين ، وهناك توتر عرقي في مقدونيا التي يصل عدد المسلمين الألبان فيها إلى ما يقرب من ٤٠٪ من السكان ، كذلك هناك توترٌ عرقي بين ألبانيا واليونان ، وبالتالي فإذا قامت الولايات المتحدة بمباركة عمليات التطهير العرقي في يوغوسلافيا السابقة ، فإن كابوس البوسنة سوف يتكرر في كوسوفو ، ومقدونيا ، وألبانيا ، واليونان . . وسيكون الضحايا أيضًا هم المسلمين ، ولا ندري وقتها ما الذي سوف تفعله الولايات المتحدة؟ .

من فضائح الغرب في البوسنة

عاد رادوفان كاراذيتش ـ زعيم صرب البوسنة ـ لممارسة لعبة القط والفأر مع الولايات المتحدة والدول الأوروبية ، فخلال أسبوع واحد تلاعب كاراذيتش عدة مرات بالجميع وأظهر أن قدراته في الخداع والكذب وتزييف الحقائق والسخرية من الآخرين لا حدود لها .

فرغم أن كاراذيتش متهم بالمسئولية عن قتل مائتي ألف من سكان البوسنة والهرسك ، وتشريد ما يزيد على مليون شخص آخرين ، وتدمير دولة كاملة ، واغتصاب خمسين ألفا من نسائها ، واعتقال مئات الآلاف لسنوات عديدة ، وممارسة سياسة تطهير عرقي بشعة ضد شعب كامل ، وجرائم أخرى لا حصر لها ، رغم كل ذلك لم يعد الغرب ينظر إلى كاراذيتش ومن حوله على أنهم عصابة من السفاحين والقتلة تجب محاكمتهم ، ولكن القضية الأساسية الآن أصبحت كيف تستطيع أمريكا بجيشها وعتادها ، وأقمارها الصناعية ، وبوارجها الحربية ، ودبلوماسيتها النافذة ، وهيمنتها على النظام العالمي الجديد ، أن تقصي رادوفان كاراذيتش عن منصبه كزعيم لصرب البوسنة ، ولم يقف الأمر عند حد الولايات المتحدة ، بل شاركها في هذا الهدف ـ الذي بدا وكأنه غاية المنى ـ زعماء

الدول الصناعية السبع الكبرى ، وصدرت توصية شديدة اللهجة إلى صربيا تؤكد أن العقوبات الاقتصادية سوف يعاد فرضها عليها إذا استمر رادوفان كاراذيتش في منصبه كزعيم لصرب البوسنة ، وذلك لأن كاراذيتش كان قد أعلن في ٢٧ يونيو ١٩٩٦م أنه لن يتنحى إلا بشروط أهمها أن يضمن «المجتمع الدولي احترام وضع الدولة بالنسبة لجمهورية صرب البوسنة وترك بلدة برتشكو الشمالية المتنازع عليها في يد الصرب» ، إلا أن زعماء الدول السبع أعلنوا في ٢٩ يونيو أنهم مستعدون لإعادة فرض العقوبات على الصرب إذا لم يتخل كاراذيتش عن السلطة «نهائيًا وعلى الفور» وقد جاء هذا التهديد بعد يوم واحد فقط من تلاوة المحكمة الدولية لمحاكمة مجرمي الحرب في البوسنة قراري الاتهام بحق زعيم صرب البوسنة رادوفان كاراذيتش وقائده العسكري رادتكو ميلاديتش ، إلا أن كاراذيتش لم يحفل بشيء من هذه الاتهامات ، وفي تحد واضح وسافر للمجتمع الدولي استدعى كاراذيتش قيادات حزبه «الحزب الديمقراطي الصربي» وأعلن في ٢٩ يونيو ١٩٩٦م أنه مستعد لخوض الانتخابات المقرر إجراؤها في البوسنة والهرسك في شهر سبتمبر ١٩٩٦م ، إلا أن قادة الدول الصناعية السبع عادوا وأكدوا على مطلبهم باستقالة كاراذيتش .

وقد دفع هذا الموقف الوسيط الأوروبي السويدي كارل بيلت أن يعلن في لهجة تهديد أن كاراذيتش أمامه ٤٨ ساعة ليعلن تنحيه عن منصبه ـ تنتهي يوم الإثنين أول يوليو ١٩٩٦م ـ وإلا تم إعادة

فرض العقوبات على صربيا ، وقبيل انتهاء المدة بيوم كامل وقف كارل بيلت يعلن عن تحقيق انتصار كبير للمجتمع الدولي حيث تخلى رادوفان كاراذيتش عن منصب الرئاسة لنائبته ـ وشريكته في كافة الجرائم التي ارتكبها ـ بيليانا بلافيتش وتناقلت الدنيا أخبار الانتصار الذي حققه المجتمع الدولي بقيادة بيلت ، وقال بيلت إنه قد تلقى وثيقة رسمية موقّعة بخط كاراذيتش يعلن فيها تنازله عن السلطة لنائبته ، وبذلك يكون المجتمع الدولي قد حقق انتصاراً حاسمًا في معركته ضد بقاء كاراذيتش في منصبه ، إلا أن الصرب الذين يخدعون المجتمع الدولي ويتلاعبون به منذ خمس سنوات لم يمهلوا بيلت ليفرح بانتصاره ، واتضح أنهم كانوا يمارسون فصلا جديداً من فصول الخداع ، وكان كارل بيلت هو الضحية هذه المرة فقد لقنوه درسًا قاسيًا حينما أعلنوا في نفس اليوم أن ما أعلنه بيلت غير صحيح وأن كاراذيتش لم يتنازل عن شيء وأنه لا زال زعيمًا لصرب البوسنة لأن الشعب الصربي هو الذي اختاره وهو الذي يقوم بعزله وليس بيلت أو المجتمع الدولي ، ولم يستطع كارل بيلت أن يواجه الصحفيين أو يعلق على ما أعلنه الصرب وإنما وقف كبار مساعديه يتهمون كاراذيتش بالخداع والتلاعب والتستر على الجرائم تمامًا كما كان يفعل سابقوهم من مساعدي ديفيد أوين وسايروس فانس والوسطاء الأمريكيين والأوروبيين الآخرين طوال السنوات الخمس الماضية ، ولم يقف الصرب عند حد تكذيب ما أعلنه بيلت ولكنهم ذكروا في تقرير نشرته وكالة أنباء بلجراد «بيتا» في أول يوليو

١٩٩٦م أن نص الرسالة التي أعلن فيها عن تنازل زعيم صرب البوسنة كارازيتش عن منصبه قد تم صياغتها في «مكتب الممثل المدني الأعلى في البوسنة كارل بيلت» وأوضحت الوكالة أن «مكتب كارل بيلت في سراييفو هو الذي اقترح نص الرسالة» وأنه تم صياغتها بشكل فيه التفاف واتفاق بين بيلت والصرب ، وأن نص الرسالة التي أعلن بيلت أنها وصلته من كارازيتش لا يحوي تنازلا عن السلطة وإنما تكليفًا مؤقتًا بالمهام لنائبته ، وجاء في الرسالة «تطبيقًا للإجراءات الواردة في النقطة الثالثة من البند ٤٠ في دستور الجمهورية الصربية القاضية بأن يقرر رئيس الجمهورية من بين نواب رئيس الجمهورية من يحل مكانه في حال تعذر عليه مؤقتًا ممارسة مهامه ، أعين نائبة الرئيس بيليانا بلافيتش اعتباراً من ٣٠ يونيو ١٩٩٦م» .

إذن فالقضية حسب مصادر الصرب لم تكن سوى لعبة بين الصرب والوسيط الدولي الذي طار إلى بالي في الثاني من يوليو ١٩٩٦م يرافقه مستشاره للشئون العسكرية الجنرال الفرنسي بيرتران دي لابريل واجتمع مع بيليانا بلافيتش وحرص على أن يظهر بجوارها أمام الصحفيين ليؤكد على مزاعمه ، إلا أن ذلك لم يغير من الواقع شيئًا ، ولكن يبدو أن بيلت قد تلقى على يد الصرب درسًا قاسيا خرج منه بفضيحة سياسية تهدد بقاءه وسيطا دوليًا ، وزاد من قسوة الدرس الذى تلقاه بيلت أن التهديدات الأمريكية والدولية للصرب سرعان ما تبخرت ، وأعلن الناطق باسم الخارجية

الأمريكية تشارلز بيرنز في الثاني من يوليو بأن تحديد موعد لإعادة فرض العقوبات على صربيا بسبب الغموض الذي تركه تصريح نائبة كارادزيتش حول بقائه في السلطة أمر يصعب تحديده ، وقال بيرنز : «لا أريد أن أدفع أحداً إلى الاعتقاد بأننا سنعيد فرض تلك العقوبات اليوم ولكننا نريد طيَّ هذه الصفحة» ، وقد نسف بيرنز بتصريحه هذا كافة التهديدات السابقة وأظهر أن مدى اللعب بين الصرب والمجتمع الدولي لازال واسعًا ، أما تصريح وليم بيري وزير الدفاع الأمريكي أثناء زيارته لسراييفو في الثالث من يوليو ١٩٩٦م برفض المقترح الخاص لقيام قوات حفظ السلام في البوسنة بالقبض على كارادزيتش فإنه يؤكد على حقيقة الموقف الأمريكي من اللعبة ، وبنظرة فاحصة إلى مجريات الأحداث على الساحة البوسنية خلال أسبوع واحد يتضح أن ما يحدث ليس سوى فصل جديد من فصول المسرحية الهزلية التى يمثلها الصرب مع الوسطاء الغربيين وممثلي المجتمع الدولي على الساحة البوسنية ، وأن كارادزيتش ليس وحده هو الكذاب والمراوغ والمخادع ، ولكنها لعبة يشترك فيها الجميع طالما أن الضحايا هم مسلمو البوسنة .

إنجاز حضاري هائل للولايات المتحدة!

احتفل العالم في عام ١٩٩٥م بذكرى مرور خمسين عامًا على الإنجاز الحضاري الهائل الذى حققته الولايات المتحدة فى ٦ و ٩ أغسطس عام ١٩٤٥م حينما فجرت أول قنبلتين نوويتين على مدينتىْ هيروشيما ونجازاكى اليابانيتين ، فمحتهما من الوجود مع كل المدنيين الموجودين فيهما من النساء والأطفال والكبار والصغار والأقوياء والضعفاء والأغنياء والفقراء والسعداء والأشقياء والمرضى والأصحاء ، فنفذت بذلك أضخم مجزرة جماعية وأكبر جريمة أخلاقية فى تاريخ البشرية .

فخلال ثلاثة أيام قتل ما يقرب من مائتين وخمسين ألف شخص وجرح أكثر من مائة ألف فى مدينتين فقط ، وبقيت آثار الإشعاع والتشويه تؤثر فى أجيال متتابعة من سكان المدينتين ، وكان من بين القتلى طلاب مدارس يستمعون إلى مدرسيهم ، وأطفال صغار يمرحون فى الحدائق بين الزهور ، وأطفال رضع كانوا على صدور أمهاتهم ، وعجائز وشيوخ لا يملكون دفع الأذى عن أنفسهم أو التسبب في الضرر لغيرهم ، وقبل ارتكاب هذه الجريمة الكبرى ارتكبت الولايات المتحدة ضد المدنيين اليابانيين جرائم أخرى من أكبرها قيام الطائرات العسكرية الأمريكية من طراز ب٢٩ خلال يومَىْ ٩ ، ١٠ مارس ١٩٤٥م بإسقاط قنابل النابلم الحارقة على

الأماكن المزدحمة بالسكان فى العاصمة طوكيو ، مما أدى إلى مصرع ثمانين ألفا من المدنيين خلال يومين .

وإذا كانت الحروب تدفع الساسة فى بعض الأحيان إلى التخلي عن أدنى المستويات الأخلاقية والمشاعر الآدمية فى الحروب ومنها عدم التعرض للمدنيين خاصة من النساء والأطفال وكبار السن فإن ما أقدم عليه الأمريكيون يفوق كل أوصاف الجشع الآدمي والإحساس الإنساني ، فخطورة تفجير القنبلتين النوويتين على هيروشيما ونجازاكي لا تكمن فى هذه الجريمة الكبرى التي ارتكبت فى حق الإنسانية كلها فحسب ، وإنما تكمن فى رفض الولايات المتحدة حتى الآن الاعتراف بهذه الجريمة أو قبول مبدأ مناقشتها بشيء من الموضوعية والمواجهة مع النفس ، ولم يقف الأمر عند حد المسئولين الأمريكيين والساسة الذين سحقوا حياة ربع مليون من البشر فى ضغطتين اثنتين على أزرار فى الطائرتين اللتين ألقيتا القنبلتين على هؤلاء البشر ، وإنما وصل الأمر إلى حد رفض الطيارين الذين ارتكبوا هذه الجرائم بحق الإنسانية أن يعتذروا عنها أو يبدوا شعوراً بالذنب تجاه ضحاياهم من النساء والأطفال والضعفاء الذين قتلوا فى لحظات معدودات وقتلت معهم أحلامهم وذكريات ماضيهم وآمال مستقبلهم ، بل إن هؤلاء الطيارين يعتبرون ما أقدموا عليه إنجازاً حضارياً حتى أن الطيار الذي كان قد كلف بإلقاء قنبلة ثالثة على مدينة يابانية ثالثة ثم ألغيت مهمته بعد استسلام اليابان قال : «لقد شعرت فى ذلك الوقت بخيبة أمل حينما أبلغوني بإلغاء العملية ، فقد أردت أن أعرف كيف يكون ذلك» أما

الطيار بول تيبتس الذي ألقى القنبلة الأولى فقد قال فى إجابته عن سؤال طرحته عليه الواشنطن بوست بعد خمسين عاماً من فعلته عن مدى شعوره بالذنب أو المعاناة نتيجة لفعلته التي سحقت مدينة كاملة بكل ما عليها من الجماد والبشر : «لا . . لم يحدث أن عانيت من أي أرق نتيجة للتفكير فى هذه المسألة ولن أعاني أبدًا من مثل ذلك . . فأنا لم أقم بعمل يمكن أن أخجل منه» . . وقال طيار أمريكي آخر ممن شاركوا فى إلقاء القنبلة دون أن يبدو عليه أي نوع من التأثر : «لقد كنا فى تلك الأيام ننفذ الأوامر . . صحيح أن كثيرين من الناس قتلوا فى انفجار واحد كبير ولكن القنبلة كانت إنجازًا أنقذ حياة الكثيرين أيضًا» .

إن نجاح الولايات المتحدة فى تكوين نفسيات من جنودها يحملون هذا العداء الكبير للإنسانية والاستهانة التامة بسحق مائة ألف إنسان أو أكثر بقنبلة واحدة واعتبار ذلك إنجازًا أو شيئًا من تنفيذ الأوامر أو عملا لا يستحق أي شكل من أشكال الندم أو المعاناة أو الشعور بالأرق أو الإحساس بالخجل لهو فى حد ذاته جريمة فى بناء الإنسان وتحديد أسلوب تفكيره ونظرته لبني البشر فى العصر الحاضر ، ومخالفة لكل سنن الكون ومسيرة البشرية وحكمة وجود الإنسان على هذه الأرض ، وإذا كان المفترض أن يربى الناس على محاسبة أنفسهم والندم على أخطائهم والاعتراف بذنوبهم كأساس لأسلوب بشري يضمن استمرارية الحياة وحفظ حقوق الإنسان عليها ، فإن تربية أمة كاملة من قادتها إلى جنودها على المكابرة والعناد والاستهانة بالبشر وعدم احترام آدميتهم وعدم الاعتراف

بالخطأ والندم عليه والاعتذار عنه بل واعتباره إنجازًا حضاريًا لهم يعتبر من أكبر الجرائم التي ارتكبتها الولايات المتحدة بعد تفجير قنابلها النووية فوق رؤوس النساء والأطفال في هيروشيما ونجازاكي قبل أكثر من خمسين عاما .

وتبقى النظرة إلى المستقبل مخيفة ومرعبة فى ظل وجود أمة يفكر أبناؤها بهذه الطريقة ، وتتولى اليوم قيادة العالم ، وهى تملك آلاف القنابل التي ربما تكون أكثر فتكا ملايين المرات من قنبلتيْ هيروشيما ونجازاكي ، بل إنه فى قلب أمتنا الآن يوجد كيان صهيوني مزروع تدعمه الولايات المتحدة بقوة يملك مائتيْ قنبلة نووية من المؤكد أن كل واحدة منها أكثر فتكا من قنبلة هيروشيما التي فجرت قبل إعلان قيام الكيان الصهيوني ، وإذا كان الأمريكيون لا يملكون حتى الآن أي مقومات أخلاقية تجاه حياة النساء والأطفال والعجائز والبشر بصفة عامة فى الدول التي لا تملك الردع النووي ، فإن اليهود وما يقومون به الآن فى فلسطين المحتلة كفيل ببيان سلوكيات هؤلاء التي سيتعاملون بها معنا إذا قدر لهم أن يستعملوا أيا من القنابل النووية التي فى أيديهم ضدنا أو ضد البشرية بصفة عامة . . لكن العجيب فى الأمر ليس فى امتلاك هؤلاء الذين لا يحترمون آدمية الإنسانية لهذه القنابل الفتاكة ، ولكنه فى استسلام البشرية لهم والإذعان لسيادتهم حتى يسوقوها ـ دون رحمة ـ مثل النعاج إلى مصيرها المحتوم .

صراع تحت قبة الكونجرس

رغم أنها لم تكن المرة الأولى التي أدخل فيها إلى مبنى الكونجرس الأمريكي ، إلا أنها كانت المرة الأولى التي تتاح لي الفرصة فيها لحضور إحدى جلسات مجلس النواب الأمريكي ، حيث جلست في شرفة عائلات الأعضاء باستضافة من السيناتور جيم بيل موران ، وكان حظي أن الجلسة كانت ساخنة للغاية ، فأزمة الميزانية بلغت ذروتها بين الديمقراطيين والجمهوريين ، ووصلت إلى حد إغلاق كثير من المؤسسات والسفارات ، بل وحتى المحاكم الأمريكية أكثر من مرة بسبب عدم وجود رواتب للموظفين وصلت إلى حد تسريح ٢٨٠ ألف موظف تسريحًا جزئيًا ، ووجود ٨٠٠ ألف موظف فيدرالي آخرين مهددين بعدم القدرة على سداد إيجارات منازلهم وفواتير حياتهم المعيشية .

وقد تعجبت من أسلوب النقد اللاذع الذي يتبادله الأعضاء من الجانبين ، ولاسيما الديمقراطيين الذين يشعرون بأن الجمهوريين يواصلون إحراج الحكومة وشلها عن القيام بوظائفها من أجل مصالح انتخابية بحتة بعد قدرتهم على الفوز بالأغلبية في انتخابات الكونجرس التي تمت في عام ١٩٩٤م ، حتى أن أحد الأعضاء الديمقراطيين اتهم في كلمته الجمهوريين بأنهم «إرهابيون وأنهم

يضعون ٣٠٠ ألف موظف فيدرالي أمريكي كرهائن لأهوائهم ومشروعاتهم التى ستدمر بنية المجتمع الأمريكي» وحينما سمعت هذه العبارة شككت في فهمي لها وظننت أن محور الجلسة ربما يتناول قضايا إرهابية بعيدة عن الميزانية ، فملت على الأستاذ خالد صفوري - نائب مدير المجلس الإسلامي الأمريكي - الذي كان يرافقني وسألته إن كان فهمي للعبارة صحيحًا أم لا ، وأن الإرهاب قد وصل إلى قبة الكونجرس وطال أعضاءه ! ، فقال لي وهو يبتسم : نعم العبارة صحيحة ، وهم يتبادلون عبارات أقسى من هذه ، فكل المصطلحات التي اخترعتها وسائل الإعلام الغربية ووصفت بها المسلمين ابتداءً من الأصولية ووصولا إلى التطرف والإرهاب أصبحت عبارات شائعة يتهم أعضاء الكونجرس بعضهم بعضا بها بعدما تفجرت أزمة الميزانية بينهم مؤخراً .

وتتلخص الأزمة التي تفجرت بين الطرفين وظهر أول أثر لها في نوفمبر ١٩٩٥م في أن الأعضاء الجمهوريين في الكونجرس بقيادة نيوت غينغرتش - رئيس مجلس النواب يريدون خفض الموازنة الأمريكية للسنوات الست التي تنتهي في عام ٢٠٠٢ بمبلغ يزيد قليلا على تريليون دولار ، أى (مليون مليون) وهو مبلغ لا يتجاوز نسبة ٥٪ من مجموع الميزانية الذي يزيد قليلا على عشرين تريليون دولار .

غير أن هذه النسبة البسيطة تمس الثوابت التي وضعها الرئيس روزفلت قبل ٦٠ عامًا ، وحسنها جونسون قبل ٣٠ عامًا ، فيما يتعلق بالسياسة الاجتماعية .

فبرنامج الجمهوريين يركز على إلغاء جملة من البرامج الاجتماعية الأساسية التي تركز على دعم الفئات المغبونة وكبار السن ، وتخفيض ميزانية العناية الصحية ، والتعليم والتدريب ، وإعانة العاطلين عن العمل والمواصلات وعلوم الفضاء والتكنولوچيا والطاقة والعلاقات الدولية الخارجية ورجال القانون والشرطة ، كما أن هناك وزارات ووكالات فيدرالية مهددة بالإلغاء بكاملها على رأسها وزارات التعليم ، والطاقة ، والتجارة ، فيما لا يوجد مساس من قريب أو بعيد بميزانية الدفاع والأمن التي تبلغ ٢٧١ مليار دولار من مجموع الميزانية الفيدرالية البالغ ١٥٠٠ مليار دولار ، فيما تلتهم فوائد الديون مبلغًا ضخمًا مقداره (٢١٣ مليار دولار) .

وفيما يبدو كلينتون أنه الحريص على الإرث السياسي الاجتماعي الذي وضعه روزفلت ، يريد غينغرتش أن يبدو على أنه المصلح الذي سوف ينقذ أمريكا من ورطتها ، ويقضي على عجز الميزانية الفيدرالية الذي يتجاوز الآن سقف ١٨٠ مليار دولار ، ويهدد مستقبل أمريكا الاقتصادي إذا استمر في الزيادة ، وقد وضع هذا الصراع بين الجمهوريين والديمقراطيين الحكومة الأمريكية في مأزق كبير ربما لم تشهده في تاريخها ، حيث طُلِبَ من ٢٨٠ ألف موظف فيدرالي البقاء في منازلهم أكثر من مَرة خلال ثلاثة أشهر بسبب عجز الحكومة عن دفع الرواتب لهم ، كما أغلقت كثير من المكاتب والمؤسسات الحكومية في عدة

ولايات ، ومدن كبرى على رأسها العاصمة الأمريكية واشنطن ، حتى أن الأزمة طالت النظام القضائي بما فيه المحكمة العليا ، حيث أدى نقص الأموال إلى التأثير على القضاة ومنعهم من مزاولة عملهم في كثير من المحاكم ، وأكد مساعد وزيرة العدل الأمريكية على ذلك ، وأعرب عن أسفه بأن «تصدعات قد بدأت في الظهور داخل الجهاز القضائي» كما توقفت الإدارات القائمة على إعداد جوازات السفر عن العمل ، مما أدى إلى انعكاسات كبيرة على مصالح الناس وارتباطاتهم ، كما تضرر اقتصاد أمريكا تضررًا فادحًا بسبب إغلاق بعض الموانئ ومنها أكبر ميناء أمريكي في لوس أنجلوس ، كما تضرر رجال الأعمال والاقتصاد من جرَّاء الإغلاق الجزئي الذي حدث في كثير من الأماكن .

وخارج الولايات المتحدة أغلقت القنصليات الأمريكية في كثير من الدول ، وعجزت عن مباشرة أعمالها بسبب عدم دفع رواتب الموظفين ، أما في سويسرا فقد وصل الأمر إلى حد توقف إمداد السفارة الأمريكية هناك بمياه الشرب ، لأن السفارة لم تسدد فواتيرها .

وفيما استطاع كلينتون أن يصل إلى حلول جزئية مع الجمهوريين أدت إلى الموافقة على اعتمادات مؤقتة للميزانية لا تعطل العمل ولا تؤدي إلى استمرار تشوه وجه الولايات المتحدة داخليًا وخارجيًا ، إلا أن هذه الاتفاقيات تظل مرهونة بأسابيع قليلة ويلعبة شد الحبل بين الجمهوريين والديمقراطيين التي لا يرى كثير من المراقبين سوى أنها مراهنات انتخابية بحتة لها آثارها المدمرة على

مستقبل الولايات المتحدة ، وما هي إلا لعبة مصالح بين الطرفين ، وأن المواطن الأمريكي البسيط هو الذي يدفع الثمن ، والدليل على ذلك أن أعضاء الكونجرس ومسئولي البيت الأبيض هم الوحيدون الذين لم تتأثر رواتبهم أو امتيازاتهم حتى الآن .

إن ما حدث يعتبر مؤشرا على إمكانية قيام الأمريكيين بتدمير الولايات المتحدة من الداخل ، كما أن ارتفاع نسبة فوائد الديون داخل إطار الميزانية بما يجعلها قريبة من ميزانية الدفاع تأكيد على أن النظام الربوي العالمي سوف يدمر صانعيه وحماته ، فالسياسة حينما تتجرد من المبادئ تصبح دماراً وخطراً حتى لدى الدولة التي تعتبر نفسها أقوى دولة في العالم ، في الوقت الذي عجزت إحدى سفاراتها عن دفع فواتير مياه الشرب للموظفين العاملين فيها .

حينما توقفت الحياة في واشنطن

شهدت الولايات المتحدة في ديسمبر ١٩٩٥م طقسًا باردًا وعواصف ثلجية وانخفاضًا في درجة الحرارة لم تشهده منذ ما يقرب من مائة عام ، فقد وصلت درجة الحرارة في ولاية مينسوتا الشمالية ٥١ درجة تحت الصفر ، وهو أدنى مستوى تصل له درجات الحرارة في هذه الولاية منذ ٩٧ عامًا ، كما شهدت ولايات الشرق والغرب الأوسط والجنوب عواصف ثلجية أدت إلى شبه شلل تام في الحياة هناك ، وكانت الفائدة الوحيدة التي استفادها الأمريكيون من هذه العواصف الثلجية الشديدة هي انخفاض معدل الجرائم والسرقات في معظم المدن الأمريكية بشكل كبير ، أما الأضرار فلم تلحق بالأمريكيين وحدهم ، وإنما لحقت أيضًا بزوّار الولايات المتحدة ، وكنت واحدًا منهم فقد قضيت ما يقرب من ثلث أيام رحلتي إلى الولايات المتحدة التي استغرقت حوالي ثلاثة أسابيع في المطارات والطائرات بسبب العواصف ، حيث كان التأخير هو السمة الملازمة في كل رحلة إقلاعًا وهبوطًا ، وقد بدأت معاناتي مع العواصف الثلجية بعد هبوطي مباشرة في مطار كيندي في نيويورك ، وكانت الأيام الخمسة التي قضيتها في لوس أنجلوس هي الأيام الوحيدة التي رأيت فيها الشمس .

فعند وصولي إلى مطار كيندي في نيويورك وجدتني محظوظًا لأن المطار كان مغلقًا لعدة ساعات قبل هبوط طائرتنا لتعذر الرؤية وارتفاع مستوى الثلوج على الأرض ، ثم فتح قُبيل هبوطنا ، إلا أن سعادتي لم تكتمل حينما وجدت طائرتي المتجهة إلى ديترويت في الشمال متأخرة ولا يعرفون متى ستأتي ولا متى ستقلع ، وأن العواصف الثلجية أدت إلى إغلاق المطارات في كثير من الولايات الشمالية ، وفكرة البحث عن مقعد في طائرة متجهة إلى أي مكان داخل الولايات المتحدة في نهاية ديسمبر أمر صعب المنال ، وحينما تحدثت مع بعض الركاب الذين كانوا متجمهرين أمام بوابة دخول الطائرة أبلغني بعضهم أنه قد مضى عليه أكثر من ١٥ ساعة في المطار .

وحينما سألت عن موظفي شركة الطيران وجدتهم قد هربوا من ضغط الركاب وإلحاحهم وأسئلتهم ، حيث إن إغلاق المطار أدى إلى تراكم ركاب أكثر من رحلة ، وحينما طال انتظاري أكثر من ست ساعات دون أن تظهر بوادر لحل المشكلة اتصلت في الثانية بعد منتصف الليل على الزميل أحمد يوسف في العاصمة واشنطن لأسأله عما ينبغي أن أفعله ، ولاسيما أنه قد مضى عليَّ ما يقرب من ثلاثين ساعة دون نوم لعدم استطاعتي النوم أثناء السفر ، فقال : عليك الآن أن تتجه إلى أقرب فندق لتنام بعد أن تُؤمِّن سفرك على رحلة تالية ، وأرجو أن تحافظ على حقيبتك وأن تحذر من اللصوص في نيويورك ، فقلت له ضاحكًا : لصوص في هذا الطقس المتجمد؟

قال نعم إنهم لا ينامون في نيويورك ، غير أنه بعد سبع ساعات من الانتظار أعلنت الشركة عن وصول الطائرة وأنها ستقلع في الرابعة والنصف فجراً .

نفس هذا المشهد المأساوي تكرر معي بدرجات متفاوتة في أربعة وعشرين إقلاعًا وهبوطًا قمت بها أثناء الرحلة بين شرق الولايات المتحدة وشمالها وجنوبها وغربها ووسطها فوجدت نفسي في النهاية قضيت ما يزيد على ستة أيام داخل الطائرات أو منتظراً لإقلاعها أو مترقبًا هبوطها في طقس لا يُحسد عليه الذين يعيشون فيه ، غير أن ما حدث في كل الولايات والمدن الأمريكية شيء ، وما حدث في واشنطن نفسها شيء آخر ، فواشنطن هي عاصمة الإمبراطورية الأمريكية ، وعواصم الإمبراطوريات والدول العظمى عادة ما يكون لها اهتمام خاص ، ورعاية مميزة ، إلا أن واشنطن غير ذلك ، فرغم أنها هي مركز صنع القرار ليس الأمريكي وحده ، وإنما القرار الدولي ، وهي قِبْلَة لكثير من الذين يسعون لتدعيم أنظمتهم أو تكريس شرعيتها لدى سدنة النظام العالمي الجديد ، إلا أن واشنطن غرقت في الثلوج مثلما غرقت من قبل في مشاكل الجريمة والعنف وصراعات الجمهوريين والديمقراطيين في الكونجرس ، والصراع بين الحكومة الوطنية وإدارة البلدية ، ومشاكل المشردين وعصابات الجريمة ، فالعاصفة الثلجية التى ضربت واشنطن في أوائل يناير ١٩٩٦م أدت إلى ارتفاع الثلوج في كثير من المناطق إلى مستويات كبيرة فوق سطح الأرض ، وكان مقر وزارة الدفاع الأمريكية في

واشنطن «البنتاجون» من الأماكن التي بلغ ارتفاع الثلج فيها نحو مترين ، مما منع هبوط طائرات الهليكوبتر غير المزودة بأنظمة الهبوط على الثلج ، وقد جعل هذا الأمر المراقبين والمحللين العسكريين يتساءلون عما يمكن أن يحدث إذا تعرضت الولايات المتحدة لهجوم خارجي في مثل هذه الظروف ، فكبار الجنرالات سيصعب عليهم التواجد في الأماكن المخصصة لهم ، أما الرئيس الأمريكي وعائلته فمن الصعب نقلهم إلى المخبأ النووي المخصص لهم في هذه الحالات ، والذي يقع في منطقة «ماونت ويذار» التي تبعد حوالي مائة كيلو متر عن العاصمة واشنطن ، أما على الصعيد السياسي فقد ألغيت كثير من الاجتماعات والأسفار واللقاءات أو أجلت ، وكان من أبرزها تأجيل زيارة وزير الخارجية الأمريكي وارن كريستوفر التي كانت مقررة في ذلك الوقت إلى دمشق والقدس المحتلة عدة أيام .

ولمدة أسبوع كامل توقفت المدارس ومعظم المحاكم وقطاعات البريد والخدمات الأخرى ، بل وحتى سيارات البوليس عجزت عن الحركة في الشوارع التي كانت تكسوها الثلوج ، مؤكدة للصوص والمجرمين أنه لن يلحق بهم أحد إذا كان لديهم رغبة في العمل في هذا الطقس المتجمد الذي لم تشهد واشنطن مثيلا له منذ ما يقرب من مائة عام .

هنا في عاصمة الإمبراطورية الأمريكية واشنطن هزمت الثلوج الأمريكيين بمن فيهم جنرالات البنتاجون الذين تجوب سفنهم وحاملات طائراتهم أعالي البحار ، لتؤكد هيمنة أمريكا وزعامتها

للنظام العالمي الجديد ، هنا توقفت الحياة ودفنت السيارات تحت الثلوج وتوقف بالتالي الصراخ والصراع تحت قبة الكونجرس بين الجمهوريين والديمقراطيين حول الموازنة الأمريكية .

هنا في واشنطن تأكدت الحقيقة الأزلية التي غفل عنها البشر ولا زالوا غافلين ، ولا أدري إلى متى سيظلون يحيلون الأسباب إلى عوامل مادية وإلى أسباب تقنية بين إدارة البلدية وصراع الجمهوريين والديمقراطيين على الميزانية؟ إن الحقيقة التي يهرب منها هؤلاء هي أن خالق الكون هو الذى يُسَيِّره ، وما حدث في عاصمة الإمبراطورية الأمريكية برهان من خالق الكون على أنه هو القادر وحده على أن يحول قوة أمريكا وجبروتها في لحظات إلى هباء منثور : «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أَوَ من تَحت أرجلكم أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون» ، فهؤلاء الذين يظنون أنهم قادرون على الأرض قد عجزوا حتى عن الخروج من بيوتهم حينما حاصرتهم الثلوج ، إن مقاليد الكون بيد الله ولم ولن تكون أبدًا في يد سدنة النظام العالمي الجديد .

عجز الحضارة الغربية أمام السنن الكونية

شهدتُ بداية الموجة الباردة التي اجتاحت أوروبا حينما كنت في إيطاليا في ديسمبر من العام ١٩٩٦م وتحديداً بدأت أشعر بها في مدينة ريمني الساحلية المطلة على البحر الأدرياتيكي أثناء حضوري المؤتمر السابع والعشرين لاتحاد الجاليات والهيئات الإسلامية في إيطاليا ، فقد كانت العواصف والأمطار هي السمة البارزة لليل والنهار خلال الأيام الأربعة التي قضيتها هناك ، وكانت درجات الحرارة دون الصفر في معظم الوقت ولا سيما في الليل ، أما البحر الأدرياتيكي المعروف بهدوئه وصفائه فقد كانت أمواجه هادرة والرياح من قبله عاصفة قارسة لا تخترق الملابس على سماكتها وإنما تخترق لَحم الإنسان إلى عظامه ، ولم تكن هذه الأجواء إلا بداية لموجة برد عاتية عصفت بالنصف الشمالي من الكرة الأرضية فقتلت خلال أسبوع واحد ما يزيد على ثلاثمائة شخص ، فيما لجأ عشرات الآلاف من المشردين إلى الملاجئ ومحطات مترو الأنفاق للاحتماء بها من الصقيع القاتل هنا في أوروبا ، أما الولايات المتحدة ، فعلاوة على الصقيع والثلوج التي غمرت أجزاء واسعة منها ، غمرت مياه الفيضانات مساحات شاسعة من غربها ، وأغرقت آلاف المنازل وأجبرت عشرات الآلاف على النزوح ضمن سلسلة متواصلة من الفيضانات والأعاصير والحرائق التي تجتاح هذه المناطق بشكل منتظم

لتدرجها وسائل الإعلام والتقارير الرسمية الغربية ضمن ما يُسمى بالكوارث الطبيعية ، لكن نظرة المسلم لهذه الكوارث يجب أن تختلف عن نظرة غير المسلم لها ، ولا سيما أن العامين الماضيين ١٩٩٥م ، و ١٩٩٦م قد شهدا من الكوارث بأنواعها وفي مناطق مختلفة من العالم ما يدعو المسلم أن يتوقف عند هذه الكوارث وحجمها الهائل باعتبارها ليست كوارث طبيعية كما يُقال ، لكنها من سنن الله التي يأخذ بها الناس ليذكرهم سبحانه بدينونة الكون له وخضوعه لمشيئته ، وأن التقدم التقني الهائل الذي وصل إليه الغرب ، والأقمار الصناعية التي تجوب الفضاء لترصد كل حركة وسكنة على سطح البسيطة قد عجزت وستظل عاجزة عن مواجهة هذه السنن التي تدخل ضمن القدرة المطلقة والحصر الكامل لما قدَّره الله سبحانه وتعالى لما خلق : « . . . وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين» ، ولا أستطيع هنا أن أقف على عدد وحجم الأعاصير والبراكين والزلازل والفيضانات والعواصف والزوابع التي تضرب جوانب الأرض كلما شاء الخالق سبحانه وتعالى أن يأخذ بعض الناس بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ، أو لحكمة يعلمها وحده ، ولكن لنأخذ بعض الأمثلة البسيطة .

ففي الولايات المتحدة التي تعتبر أقوى دول العالم وأكثرها تقدماً ، نجد أن وكالة الطيران والفضاء الأمريكية «ناسا» قد خصصت أكثر من قمر صناعي لرصد كتل الغيوم وتحركات الرياح التي تجوب الولايات المتحدة ، حيث تقوم آلات التصوير الفضائية

التابعة لهذه الأقمار بالتقاط ٥٠٠ صورة في الثانية الواحدة لرصد أدق الشرارات الكهربائية الصغيرة والمفاجئة التي تتولد منها الأعاصير والزوابع ، ومع ذلك عجز العلماء الأمريكيون عن رصد كيفية وأسباب تشكل الأعاصير والزوابع التي تضرب جوانب الولايات المتحدة على مدار العام ، ويقول البروفيسور هاوارد بلوستين الباحث في جامعة أوكلاهوما والذي يدرس منذ عام ١٩٧٧م ظاهرة أعاصير التورنيدو الشهيرة التي تضرب الولايات المتحدة : «إن أحداً لا يعرف بالتحديد لماذا يتشكل العديد منها هذا اليوم في حين لا يظهر لها أي أثر في يوم آخر يتصف بنفس الشروط اللازمة لولادتها» ، وتضرب مناطق الولايات المتحدة ٨٠٠ زوبعة وإعصار قوي كل عام تدمر في طريقها الأخضر واليابس ، وتُشرد مئات الآلاف ، وتُكلف الخزينة الأمريكية عشرات المليارات من الدولارات ، وتقذف الرعب في قلوب ملايين الأمريكيين ، ورغم أن الولايات المتحدة خصصت فرقاً علمية ليس لرصد هذه الأعاصير ، وإنما لملاحقتها ، إلا أنها عجزت حتى الآن عن معرفة ساعة وقوعها ، أو حتى مواجهتها ، وحتى ندرك حجم الخسائر الهائلة التي تسببها هذه الكوارث لميزانية الولايات المتحدة ، فقد كلف زلزال واحد ضرب كاليفورنيا في عام ١٩٩٥م الخزينة الفيدرالية ٥ ,١١ مليار دولار ، أما اليابان التي تعتبر أكبر دول العالم تقدماً في التكنولوجيا ، فلم تستطع مواجهة الزلزال الذي ضرب مدينة كوبي في ١٧ يناير ١٩٩٥م ، وخلّف وراءه ما يقرب من ستة آلاف قتيل و٢٧ ألف جريح ودمر ما يقرب من مائة وعشرة آلاف مبنى ومسكناً وبلغ

مجمل الخسائر المادية التي خلفها الزلزال مائة مليار دولار أمريكي ، أما «فيضان القرن» الذي ضرب أوروبا في نفس الفترة التي وقع فيها زلزال اليابان في يناير ١٩٩٥م ، فقد أدى في هولندا إلى إجلاء ما يقرب من مائتين وخمسين ألف شخص عن منازلهم بعدما أغرقها الفيضان ، وقدرت غرفة التجارة في إقليم غلدرلاند الهولندي خسائر الفيضانات وعمليات الإجلاء بما يتجاوز ٥٦٠ مليون دولار ، أما فرنسا فقد انقطعت مياه الشرب فيها عن ٢٤٠ ألف شخص وألحقت الفيضانات أضراراً بأربعين ألف منزل ، وحرمت ٢٥٠ ألف شخص من الكهرباء ، أما في ألمانيا فقد تعرضت مدينة كولون القديمة لأضرار فادحة وتم ترحيل ١٥ ألف شخص عن منازلهم ، وفي لوكسمبورج تم إجلاء المئات أيضاً فيما أظهرت الصور التلفزيونية مئات القرى والمدن في أوروبا ، ولم يعد يرى فيها إلا بيوتاً خاوية تغمرها مياه الفيضانات ، وقد رصدت منظمة التعاون والتنمية حجم الخسائر الاقتصادية الناجمة عن الفيضانات بأنها بلغت من عام ١٩٧٠م حتى عام ١٩٩٠م حوالي ٥٠ مليار دولار ، وهو مبلغ تقديري لصعوبة الحصر الدقيق لما تسببه الفيضانات التي تجتاح العالم من خسائر سواء أكانت اقتصادية أم بشرية ، ورغم التقدم الصناعي والتكنولوجي الهائل في الغرب ، إلا أن أوروبا وقفت عاجزة أمام مياه «فيضان القرن» الذي اجتاحها في يناير ١٩٩٥م تماماً كما وقفت اليابان عاجزة أمام «زلزال القرن» الذي ضرب إحدى مدنها في نفس الفترة ، كما تقف الولايات المتحدة عاجزة أمام ٨٠٠ إعصار وزويعة تضربها كل عام فلا تملك حتى الآن

بكل ما لديها من قوة أن تكتشف أسرارها أو مواعيد حدوثها وولادتها بدقة .

ولا تقف تلك السنن عند هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم أهل «العالم الأول» ، وإن كانوا هم أكثر الناس تعرضاً لها على مدار العام ، وإنما تضرب أيضا أهل ما يسمى بالعالمين الثاني والثالث ، ففي روسيا قتل أربعة آلاف شخص في الكوارث التي وقعت بها في عام ١٩٩٥م ، منهم ألفان في الزلزال الذي ضرب جزيرة سخالين ، أما في الصين ، فقد قتلت الفيضانات في عام ١٩٩٤م خمسة آلاف شخص ، وفي عام ١٩٩٥م ، قتلت أربعة آلاف شخص ، كما خلَّفت الفيضانات في ذلك الوقت خسائر اقتصادية بلغت أكثر من ٢٥ مليار دولار ، أما فيضانات العام ١٩٩٦م ، فقد خلفت وراءها أكثر من ١٢ ألف قتيل وأربعة ملايين مشرد ، وتدمير ما يقرب من مليون منزل وإلحاق الضرر بما يقرب من ثلاثة ملايين منزل آخرين ، مما أعاد إلى الصين المخاوف من فيضانات أعوام ١٩٣١م و ١٩٣٥م و١٩٥٤م ، التي خلَّفت وراءها حسب الإحصاءات الرسمية ما يزيد على ٣٠٠ ألف قتيل ، ولم تنج بنجلاديش أكثر دول العالم فقراً من الفيضانات هي الأخرى ، حيث بلغ عدد المشردين فيها من جراء الفيضانات التي ضربتها في يوليو ١٩٩٦م أربعة ملايين مشرد ، وعلاوة على ذلك ، فقد ضربت الزلازل والكوارث ولازالت تضرب كل يوم أنحاء متفرقة من العالم ، دون أن تكون هناك رؤية حقيقية لدى معظم البشرية لأسباب هذه الكوارث ، التي هي في حقيقتها من جند الله وسننه التي لم تغب منذ أخذ الله سبحانه وتعالى قرى

الأولين وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ، ومع أن البشر أصبحوا يشاهدون هذه الكوارث عبر شاشات التلفزة ووسائل الإعلام العالمية بشكل يومي ، إلا أن جحودهم ونكرانهم لنعم الله يزداد يوماً بعد يوم ، ويغيبون عن أنفسهم حقيقة التفكر في هذه الكوارث ، ويظنون أنهم أصبحوا قادرين على الأرض بالتكنولوجيا التي أوصلهم الله إليها ، فيما الحقائق تؤكد أنهم لا يملكون دفع أدنى الضر عنهم ، ولكن إذا ضلت البشرية كلها ، فإن المؤمن لا يضل ، وإذا ظلت وسائل الإعلام تدَّعي أن ما يحدث هو كوارث طبيعية ، فإن معتقدات المسلم توجب عليه أن يوقن أن ما يحدث هو «سنن إلهية» ، وعليه أن يتعوذ بالله من أن يأخذه بها ، «إن أخذه أليم شديد» .

سقوط «ويلي كلاس»

بعد تكليفه بمهام الأمين العام لحلف الأطلسي في سبتمبر من العام ١٩٩٤م ، عكف ويلي كلاس ستة أشهر لإعداد ورقة عمل للحلف حول «خطر الأصولية الإسلامية في زعزعة استقرار منطقة البحر المتوسط» وذلك بطلب من وزير الدفاع الأسباني ، ودعم وزيري دفاع فرنسا وإيطاليا ، بعد اجتماع دام يومين في إشبيلية في أسبانيا ، وضم وزراء الدفاع في الدول الست عشرة الأعضاء في حلف الأطلسي وانتهى في ٣٠ سبتمبر ١٩٩٤م .

وفي فبراير ١٩٩٥م كان ويلي كلاس قد انتهى من إعداد ورقته التي شن بعدها هجوما ضاريا على الإسلام والمسلمين عبر تصريحات أدلى بها إلى كثير من الصحف العالمية البارزة ، ففي الثاني من فبراير ١٩٩٥م ، أدلى كلاس بحديث إلى صحيفة «سوديتش زيتوج» الألمانية ، قال فيه : «إن الأصولية هي على الأقل خطيرة كما كانت الشيوعية ، ونرجوكم ألا تقللوا من شأن هذا الخطر» ، وأضاف كلاس بأنه يرى أن «حلف الأطلسي يمكنه التصدي للتهديد الذي يشكله المتطرفون الإسلاميون في الوقت الذي يعيد فيه تحديد دوره بعد أن كسب الحرب الباردة» ، ثم أضاف كلاس : «إن حلف الأطلسي هو أكثر من تحالف عسكري ، فقد

أخذ على نفسه الدفاع عن المبادئ الأساسية للحضارة التي تربط أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية» ، وفي حوار آخر أجرته «الإيندبندنت» البريطانية مع كلاس ونشرته في نفس الوقت ، قال كلاس : «إن الخطر الذي يشكله الأصوليون الإسلاميون هو من أهم التحديات التي تواجه الغرب بعد تفكك الاتحاد السوفييتي والكتلة الاشتراكية ، وانتهاء الحرب الباردة ، وزوال خطر الشيوعية» ، وأكد كلاس على ضرورة «ألا نقلل من المخاطر الناجمة عن الأصوليين الإسلاميين ، فمن واجبنا أن ننظم حواراً خاصاً مع الدول التي تواجه ذلك النوع من الصعوبات» .

هذه التصريحات الخطيرة التي أدلى بها ويلي كلاس - أمين عام حلف الأطلسي - في ذلك الوقت ، لم تجد أدنى اعتراض أو احتجاج يذكر من حكومات العالم الإسلامي على اعتبار أنها هجوم شامل على المسلمين ، وتشويه لصورة الإسلام ، بل إن بعض الحكومات العربية التي تتمتع بعلاقات وثيقة مع حلف الأطلسي التقى سفراؤها مع كلاس في مقر الحلف في بروكسيل ، وتحاور معهم كلاس حول هذه الدعوة المشبوهة التي لم تكن تعكس رأي كلاس وحده بقدر ما كانت تعكس رأي الدول الأعضاء في حلف الأطلسي الست عشرة ، وبينما كان كلاس يتحرك مزهوا بتصريحاته التي لم تجد من حكومات المسلمين من يدفعها ابتلاه الله بفضيحة ظلت حبيسة الأدراج سبع سنوات ، لتقض مضجعه ، ولتكون للمسلمين المستضعفين عبرة وعظة ، يدركون من خلالها أنه سبحانه

قد تكفَّل بحفظ دينه إن عجز البشر عن حفظه والدفاع عنه .

فبعد إعلان ويلي كلاس الحرب على المسلمين بأيام تفجرت قضية مثيرة في بلجيكا مفادها أن ويلي كلاس متورط في فضيحة رشوة حينما كان وزيراً للمالية والاقتصاد في بلجيكا عام ١٩٨٨م ، حيث كان أحد اثنين وقَّعا على صفقة شراء طائرات هليكويتر للجيش البلجيكي عددها ٤٦ طائرة من شركة «أغوستا» الإيطالية لصناعة الطائرات بقيمة ٢٢٥ مليون دولار ، حيث حصل كلاس على رشوة مقدارها ٧ , ١ مليون دولار من الشركة المذكورة لتمرير الصفقة على أن تودع الرشوة كمنحة للحزب الاشتراكي البلجيكي الذي ينتمي كلاس إلى الجناح الفلمنكي منه ، ورغم أن هذه الفضيحة ظلت تتفاعل بشكل دراماتيكي طوال السنوات السبع الماضية ، حتى أنها أدت إلى استقالة ثلاثة وزراء بلجيكيين ، ومقتل سياسي بارز عام ١٩٩١م ، إلا أن كلاس ظل ينفي أية علاقة له بهذه الفضيحة من قريب أو بعيد ، ثم اضطر لتغيير نفيه القاطع بعد اعتراف زميله في تمرير الصفقة «فرانك فاندنبروك» الذي كان وزيراً لخارجية بلجيكا ورفيقا لكلاس حينما وقَّع على الصفقة في عام ١٩٨٨م ، حيث طالت التحقيقات كلاس بعد ذلك بشكل مباشر في شهر مارس ١٩٩٥م ، وأعلن الناطق الرسمي باسم البرلمان البلجيكي في ٨/ ٤/ ١٩٩٥م ، بأن كلاس متهم بشكل مباشر ليس بالتستر على الرشوة الخاصة بحزبه والمتعلقة بصفقة طائرات الهليوكوبتر فقط ، وإنما برشوة ثانية مقدارها ٦٠ مليون فرنك

بلجيكي تتعلق بإبدال سلاح الجو البلجيكي نظام «كراباس» لقيادة طائرات «إف ١٦» الأمريكية بنظام فرنسي مماثل من شركة «داسو» الفرنسية ، وتهم أخرى بشأن طائرات «ميراج» الفرنسية .

ولم يجد كلاس الذي نجا في يوليو ١٩٩٤م من فضيحة أخرى عندما أصدرت المحكمة العليا في بروكسيل حكمها بعدم مثوله للتحقيق ، في شأن نشاطات شركة أبحاث اتهمت بتحويل أموال بطريقة غير شرعية إلى بعض الأحزاب ـ لم يجد فرصة للنجاة من هذه الفضيحة الكبرى ، فأعلن استقالته في العشرين من أكتوبر ١٩٩٥م ، بعدما أعلن البرلمان البلجيكي في ١٩ أكتوبر رفع الحصانة عنه وتحويله للمحكمة العليا لمحاكمته بتهمة الرشوة والفساد ، وسقط كلاس ، لكننا لا ندري هل ستبقى تصريحاته التي أدلى بها ضد المسلمين استراتيجية يتعامل بها الحلف مع المسلمين ، أم سيغير الحلف سياساته ويلجأ للحوار ، ويوجه جهوده لأعدائه الحقيقيين ، بدلاً من اتهام المسلمين بهذه التهم الباطلة؟ .

فَخُّ المساعدات الأمريكية

وقف السيناتور الأمريكي ميتشل ماكونال ـ رئيس اللجنة الفرعية للاعتمادات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي ـ أمام مجموعة من المراسلين في إبريل ١٩٩٥م ، قائلا : «لقد انتهت ديبلوماسية دفتر الشيكات» ، وكان ماكونال يشير بذلك إلى قرار الإدارة الأمريكية بتقليص مساعداتها العسكرية والاقتصادية للأردن ، لتكون الأردن بذلك أولى الدول العربية التي وقَّعَت على اتفاقية سلام مع «إسرائيل» ، ثم حرمت من التقليد الأمريكي الذي يمنح مساعدات اقتصادية وعسكرية للدول التي تلتزم بالسلوك الجيد إزاء مصالح الولايات المتحدة ومطالبها ، ذلك التقليد الذي بدأته الولايات المتحدة على يد الرئيس ترومان في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، وفي أعقاب تصريحات ماكونال وقف نظيره في مجلس النواب سوني كالاهان أمام المراسلين مؤكدا على كلام ماكونال ، وقال كالاهان : «لن تكون هناك مساعدات عسكرية أو اقتصادية للأردن ، ولن تكون هناك أية التزامات لسوريا إذا حققت السلام مع إسرائيل» .

وكانت هذه التصريحات رسالة قاسية إلى الأردن ، كما كانت إنذاراً مباشراً إلى مصر التي قدمت الكثير في مقابل القليل من المساعدات التي أخذتها من الولايات المتحدة ، فقد وقعت الأردن اتفاقها مع «إسرائيل» وهي تحمل برنامج مساعدة أمريكية تمتد إلى عشر

سنوات ، وتبلغ قيمته ٥ , ٢ بليون دولار ، بل وكان هناك تلميح إلى أن الولايات المتحدة يمكن أن تعطي الأردن بعضا من المساعدات السنوية المخصصة لإسرائيل على اعتبار الشراكة الوثيقة التي قامت بينهما ، وحرص «إسرائيل» على الحفاظ على الأنظمة المشاركة لها فيما يسمى بمسيرة السلام ، كذلك كان الأردن قد طالب الولايات المتحدة بعقد صفقة عسكرية معها تقدر قيمتها باثني عشر بليون دولار تتضمن حصول الأردن على ثلاثة إلى أربعة أسراب من الطائرات ، و٢٠٠ دبابة أمريكية ، ولم تذهب هذه الآمال وحدها أدراج الرياح ، بل إن صفقة طائرات «إف ـ ١٦» ، وصواريخ «هوك» التي ظل الأردن ينتظرها من الولايات المتحدة طيلة اثني عشر عاما قد ذهبت هي الأخرى أدراج الرياح ، مما دفع ريتشارد أرميتاج ـ نائب وزير الدفاع الأمريكي سابقا ـ أن يقف أمام لجنة الشئون الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ في ١١ مايو الماضي ليعرب عن أسفه لما لحق بالأردن قائلا : (إنني أجد من المذهل أن الإدارة والكونجرس لا يستطيعان التعاون على برنامج تحديث فاعل للأردن ، خصوصا وأنه قد دخل رسميا في حال سلام مع إسرائيل ، وأذكر أن الكثير من أعضاء هذا المجلس «الشيوخ» والمجلس الآخر «النواب» كانوا يقولون من قبل : «إن كل ما على الأردن عمله للحصول على مساعدة أمنية جدية من الولايات المتحدة هو التوقيع على معاهدة سلام مع إسرائيل» .

لكن بعد التوقيع تغير كل شيء ، وما لحق بالأردن شعر به الرئيس مبارك ، وأعرب عنه أثناء زيارته آنذاك لباريس ، وأشار إلى أنه يدرك بأن «المساعدات الأمريكية لمصر لن تستمر على ما هي

عليه» ، وكان مكتب التمثيل التجاري المصري في واشنطن قد أعد تقريرا اقتصاديا نشر في ١٢ مايو ١٩٩٥ قال فيه : إن إجمالي المساعدات الاقتصادية التي قدمتها الولايات المتحدة لمصر خلال الفترة من ١٩٧٥م إلى ١٩٩٤م بلغت حوالى ١٩,٣ مليار دولار ، خصص الجانب الأكبر منها لمشروعات استفادت منها الولايات المتحدة ، حيث إن غالبية هذه المساعدات مشروطة ومخصصة ، خلاف المساعدات التي تقدم لإسرائيل منذ قيامها في عام ١٩٤٨م ، والتي تحدد إسرائيل قنوات صرفها وليس للولايات المتحدة أي دخل في ذلك ، خلاف عشرات المليارات من المساعدات غير الرسمية التي تصب في دعم «إسرائيل» وتقويتها على حساب دول المنطقة كلها ، وتأتي هذه المساعدات كتعهد أمريكي يؤكد عليه كل مسئول أمريكي يتحدث عن «إسرائيل» و«أعدائها» ، كما ذكر بليترو ـ مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشئون الشرق الأوسط ـ في بيانه الذي ألقاه أمام لجنة مختصة في مجلس الشيوخ في ١١ مايو ١٩٩٥م ، مما يؤكد للذين دخلوا في مسيرة سلام مع «إسرائيل» أنهم لازالوا أعداء «إسرائيل» حتى في العرف الرسمي الأمريكي .

وقد استخدمت المساعدات الأمريكية التي قدمت لمعظم دول الشرق الأوسط لتركيع هذه الدول وإدخالها ضمن برنامج الولاء المطلق للمصالح الأمريكية ، علاوة على استنزاف طاقات هذه الدول وتدمير اقتصادها ، ومصر هي أكبر مثال على ذلك ، فقد اضطرت مصر بعد دخولها في مسيرة التسوية مع «إسرائيل» بعد

حرب أكتوبر ١٩٧٣م إلى الخضوع للابتزاز الأمريكي الذي بدأه كسينجر ، فبدأ بتقديم المساعدات للسادات في عام ١٩٧٥م ، مقابل وصول مصر الآن إلى أن يصبح ٢٥٪ من إجمالي وارداتها من الولايات المتحدة ، وأن تصبح الدولة رقم ٢٨ في قائمة أكبر الدول المستوردة من الولايات المتحدة ، وواحدة من أكبر تسع دول تستورد القمح نقدا من الولايات المتحدة بعدما كانت تصدره ، وتوفر مصر بمواردها من الولايات المتحدة سنويا وظائف لأكثر من ٦٠٠ ألف أمريكي ، فيما يعاني اقتصادها ، وتزداد ديونها يوما بعد يوم .

أما الدول التي رضخت للنفوذ الأمريكي ثم غيرت سياستها بعد ذلك مثل السودان وباكستان ، فقد تم إيقاف المساعدات عنها في يناير ١٩٩٢م ، فيما خفضت المساعدات لتركيا بعد أن أعطت كل شيء ولم تعد تستطيع العودة عن الطريق الذي سارت فيه ، كما حدث للأردن مؤخرا ، وكما سيحدث للدول الأخرى ما عدا «إسرائيل» ، لأن الذي يقود عملية خفض المساعدات أو منحها هو اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة ، وكان هذا واضحا في خطاب كلينتون الذي ألقاه أمام المؤتمر السادس والثلاثين للجنة الأمريكية ـ الإسرائيلية للشئون العامة «إيباك» الذي عقد في واشنطن في السابع من مايو ١٩٩٥م ، حيث خاطب الحضور طالبا منهم ـ في ضعف لم يظهر به رئيس أمريكي سابق ـ التدخل لدى الكونجرس حتى يسمح باستمرار تدفق المساعدات للدول الصديقة للولايات المتحدة ، حيث يصر الجمهوريون على خفض المساعدات

الأمريكية الخارجية التي أشار وزير الخارجية الأمريكي كريستوفر آنذاك إلى أنها ستصبح في عام ١٩٩٦م ١١ مليار دولار فقط ، بدلا من ٧٩ , ٢٠ مليار في عام ١٩٩٤م ، وأشار كريستوفر إلى أن هذه الموازنة هي «الحد الأدنى اللازم للدفاع عن المصالح الأمريكية» ، ووصف هذه الميزانية بأنها متقشفة بكل المعايير» .

إن المساعدات الأمريكية لدول الشرق الأوسط والدول الإسلامية بصفة خاصة لم تكن سوى الفخ الذي سقطت فيه هذه الدول ، فقدمت الكثير من مقدرات شعوبها ، وخيرات بلادها دون أن تحصل على شيء سوى الوهم الأمريكي والسيطرة والسطوة الصهيونية والصلف اليهودي ، ومع ذلك فلا زال هناك واهمون ينتظرون المزيد ، ويواصلون سيرهم في النفق المظلم انتظارا للمساعدات .

خمسون عاما من الابتزاز

فرض المنتصرون في الحرب العالمية الثانية أشكالا مختلفة لهيئات وتجمعات يستطيعون من خلالها فرض سطوتهم وإحكام سيطرتهم على دول العالم النامي ولاسيما دول العالم الإسلامي التي تقع في قلب خريطة العالم ، وكان صندوق النقد الدولي الذي اتخذ المنتصرون قراراً بإنشائه في أعقاب مؤتمر بريتون وودز عام ١٩٤٤م هو أحد صور الاحتلال غير المباشر التي ابتكرها الغرب بعد انتهاء احتلاله العسكري للمنطقة ، فرغم أن المهمة الأساسية التي يجب أن يقوم بها صندوق النقد الدولي هي «مراقبة نظام نقدي يقوم على أسعار صرف ثابتة» إلا أن هذه المهمة قد اختفت تمامًا منذ أكثر من عشرين عامًا وأصبحت مهمة الصندوق السرية والعلنية الآن هي تحقيق أهداف الدول الكبرى ـ ولاسيما الولايات المتحدة التي يقع بها مقر الصندوق ، والتي تمول الجانب الأكبر من مخصصاته ـ في التدخل والتأثير المباشر في السياسة الاقتصادية للدول التي تعاني ضعفا اقتصاديا وقصوراً في مواردها المالية ، وكذلك تقديم الدعم المصحوب بشروط مجحفة للدول التي لا تجد طريقًا لحل مشاكلها الاقتصادية ، وقد استطاع الصندوق أن يُوقع في براثنه عشرات الدول النامية والفقيرة ، وأصبح يتحكم بشكل مباشر في سياساتها ومواردها وحتى مؤسساتها الاقتصادية ، وقد أشارت دراسات

وأبحاث اقتصادية كثيرة إلى أن كل الدول التي تعاملت مع الصندوق قد تدهورت حالتها الاقتصادية بشكل يدعو للرثاء ، لأن سياسة الصندوق تعتمد على امتصاص السيولة النقدية في الدول التي تقترض من الصندوق وتخضع لشروطه وتوصياته التي أشبه ما تكون ـ في رأى كثير من الاقتصاديين ـ بامتصاص الدم من الجسد ، فهذه الشروط والتوصيات حولت كثيراً من الدول الغنية إلى دول مدينة ، وكثيراً من الدول الفقيرة إلى دول أكثر فقراً وعجزاً حتى عن تسديد فوائد الديون .

وقد أكدت على ذلك مجلة «جون أفريك» الفرنسية في تقرير نشرته عنها «العالم اليوم» في ٢١/ ٨/ ٩٤ فقد أشار التقرير إلى أن الدول الإفريقية التي تقع جنوب الصحراء الكبرى ، والتي تتعامل مع الصندوق قد أصبحت مديونياتها الآن أثقل مما كانت عليه قبل عشر سنوات ، ففي عام ١٩٨٥م كانت مديونيات تلك الدول ٦٣, ٥ مليار دولار أمريكي ، أما في نهاية عام ١٩٩٣م فقد وصلت مديونيات تلك الدول إلى ١٣٢, ٥ مليار دولار ، وذلك بسبب توصيات صندوق النقد وشروطه ، وأكدت «جون أفريك» أن كل سياسات الإصلاح الاقتصادي التي فرضها الصندوق على معظم الدول الإفريقية التي خضعت لشروطه قد فشلت في برامجها وضربت مثالا على ذلك بدول كينيا ونيجيريا وغانا وكوت ديفوار وكل بلدان الفرنك التي تقع في غرب القارة الإفريقية .

وقد بلغ الوضع بثلاثين دولة من الدول الإفريقية المدينة

للصندوق بأنها أصبحت عاجزة ليس عن تسديد الديون ، وإنما عن تسديد فوائد الديون .

ولا يختلف الوضع المزري للمديونية الإفريقية كثيراً عن الوضع العربي ، فقد نشرت الأمانة العامة للمؤتمر القومي العربي الذي عقد في بيروت تقريراً في مايو ١٩٩٤م ذكرت فيه أن المديونية العربية بلغت ١٩٤ مليار دولار ، وذلك في نهاية عام ١٩٩٣م وتبلغ الفوائد المقررة على هذه الديون ١٨ مليار دولار ، وهو ما يعادل ميزانيات دول عديدة ، وأشار التقرير إلى أن ديون الدول العربية تمثل ٧٥٪ من إجمالي الناتج المحلي .

ويلعب صندوق النقد دوراً هامًا في ترسيخ هذه الديون ومضاعفتها وابتزاز الجانب الأكبر من مخصصات الدول العربية وثرواتها ، وليس أدل على ذلك من الطريقة التي ظل يتفاوض بها الصندوق مع كل من مصر والجزائر حتى حوَّل دولة مثل الجزائر كان من المفترض أن تكون واحدة من أغنى دول العالم بما تملك من ثروة نفطية هائلة إلى دولة وصلت ديونها الآن إلى ٥٢ مليار دولار ، وقد فتح صندوق النقد الدولي خزائنه للجزائر فأفرط العسكر في الاستدانة حتى أصبحت ثروة الجزائر الطبيعية المتمثلة في النفط والغاز الآن مرهونة لعدة عقود .

أما مصر فقد وافقت في يوليو ١٩٩٤ على شروط صندوق النقد المجحفة وغير المنطقية والتي من أبرزها عدم قدرة مصر على حماية صناعاتها الوطنية ، كذلك القبول بمبدأ تحقيق تخفيض سعر

الجنيه مقابل الدولار والإسراع ببرنامج الخصصة ، ذلك البرنامج الذي أشار كثير من المحللين الاقتصاديين إلى أنه سوف يؤدي إلى بيع المؤسسات الوطنية المصرية بثمن بخس ، كذلك طلب الصندوق وضع احتياطات البنك المركزي المصري تحت رقابة الصندوق ، وهذا يعتبر ـ في رأي كثير من المراقبين ـ مساسا بسيادة السلطات النقدية المصرية ، كذلك طلب الصندوق إطلاق مد يده في سوق الصرف المصرية ، وقد بلغ عدد دول منطقة الشرق الأوسط والدول الإفريقية التي أصبح صندوق النقد يتدخل الآن بشكل مباشر في شئونها العامة أكثر من خمسين دولة معظمها من الدول الإسلامية .

أما أخطر أساليب الابتزاز التي أصبح يمارسها صندوق النقد الدولي الآن مع الدول الإسلامية ليست فرض الخصخصة أو التحكم فى سعر صرف العملات وأسعار السلع الضرورية والتوجهات السياسية للدول المدينة ، وإنما وصل الأمر إلى درجة الابتزاز العلني لعقائد المسلمين وتوجهاتهم ومساعيهم لتحري الحلال والحرام في شئون حياتهم ، وقد تمثلت أكبر صور هذا الابتزاز في الزيارة التي قام بها وفد من الصندوق إلى صنعاء في نهاية مايو وأوائل يونيو ١٩٩٥م حيث وضع الوفد توصيتين هامتين إلى الحكومة اليمنية ، وذلك في مقابل منحها مساعدات تبلغ قيمتها ٢٨٠ مليون دولار على مدى اثني عشر شهراً ، أما التوصية الأولى : فهى كما جاءت على لسان خبير اقتصادي يمني ونشرتها وكالة الأنباء الفرنسية تتمثل في «الحد من نفوذ التيار الإسلامي داخل

المؤسسات الحكومية» ، أما التوصية الثانية : فهى «إلغاء قرار إنشاء البنك الإسلامي» الذي كانت الحكومة اليمنية قد وافقت مبدئيًا على إنشائه في شهر إبريل ١٩٩٥م .

وقد أبدى بعض المراقبين تعجبهم من وضوح هذه التوصيات التي ربما تكون تمهيدًا لأن يطلب الصندوق من الدول الإسلامية المدينة له ـ والتي تسمح بنظام مصرفي إسلامي ، وقيام بنوك إسلامية على أرضها ـ أن تغلق هذه البنوك مستقبلا ، كما فرض على بعض هذه الدول من قبل أن تصفي شركات توظيف الأموال وإلا حُرِمَت من بركات الصندوق . . ولا زال في المستقبل مجال لمزيد من الابتزاز .

الابتزاز الفرنسي لخيرات إفريقيا

حينما جلست ولعدة أيام أقلب في واقع الدول الإفريقية وارتباطاتها السياسية والعسكرية وتاريخها القريب ، وجدتني في النهاية أمام مستعمرة كبيرة تضم ثماني وأربعين دولة كل منها له أهميته ، سواء من ناحية الموقع الاستراتيجي أو الثروة الهائلة من المواد الخام التي تحويها أرض كل دولة أو جبالها أو مياهها الإقليمية ابتداء من الذهب ، والماس ، واليورانيوم ، والبترول ، والغاز ، وانتهاءً بالأخشاب ، والمنجنيز ، والحديد ، واللوز ، والجوز ، وزيوت النخيل ، لكني وجدت أن هذه الخيرات تذهب لغير أهلها ، يتمتعون بها ويستمدون القوة والنفوذ من خلالها ، فيما يفتك الجوع والفقر والصراعات بشعوب إفريقيا ، كما أن ولاءات الدول الإفريقية وروابطها السياسية والعسكرية تتوزع بين الدول الأوروبية والولايات المتحدة التي احتلتها طويلا ولازال لبعضها قواعد عسكرية بها ، ومن أبرز تلك الدول فرنسا ، وبريطانيا ، وإسبانيا ، والبرتغال ، وبلچيكا ، وإيطاليا ، والدول الإسكندنافية ، وجنوب إفريقيا ، كما وجدت نفوذاً متناميًا لإسرائيل علاوة على الولايات المتحدة .

وكان تدخل القوات الفرنسية في إفريقيا الوسطى في نهاية مايو ١٩٩٦م لحماية نظام الرئيس إنجي فيلكس باتاس قد دفعني للبحث عن الدور الفرنسي بشكل خاص في إفريقيا حيث عادت

فرنسا بعد تولي الرئيس جاك شيراك مهام السلطة في فرنسا في مايو ١٩٩٥م إلى ممارسة دور الشرطي ، وممارسة لعبة الانقلابات وإثارة القلاقل في مستعمراتها السابقة في إفريقيا ، تلك المستعمرات التي ترتبط معظمها أو كلها مع فرنسا باتفاقات عسكرية وسياسية تجعلها تدور في إطار السياسة والنفوذ الفرنسي ، فمن بين ثمانية وأربعين دولة إفريقية أحصيت اثنتين وعشرين دولة خضعت للاحتلال الفرنسي ، منها ست دول لازالت فرنسا تحتفظ بقوات عسكرية في أراضيها ، هى إفريقيا الوسطى ، وتشاد ، وجيبوتي ، وريونيون ، والسنغال ، وجزر القمر ، أما بوركينا فاسو ، وبنين وبوروندي وتوجو ، وزائير ، وغينيا ، وغينيا الاستوائية ، والكاميرون ، وساحل العاج والكونجو ، ومالي ، والنيجر فترتبط باتفاقات عسكرية أو سياسية أو اقتصادية تجعلها لا تستطيع الخروج عن الفلك الفرنسي مما يتيح لفرنسا أن تتدخل بقواتها في الوقت الذي تريد لإقرار أي نظام تريده في هذه الدول التي تمثل ما يقرب من نصف الدول الإفريقية ، وتتحكم فرنسا بشكل مباشر في اقتصاديات ١٤ دولة من هذه الدول حيث ترتبط عُملتها بشكل مباشر بالفرنك الفرنسي ، وفي عام ١٩٩٤م أجبرت فرنسا هذه الدول على تخفيض قيمة عملتها بنسبة خمسين في المائة لصالح العملة الفرنسية مما أدى إلى زيادة الفقر والعوذ لكل الموظفين والجنود العاملين في هذه الدول حيث أصبحت قيمة رواتبهم في يوم وليلة نصف ما كانت عليه فيما بقيت السلع الفرنسية التي تمثل السلع الرئيسية للمستهلكين في هذه البلاد بنفس أسعارها مما دفع هؤلاء إلى القيام بعمليات احتجاج في كثير من المناطق بعدما بدأ الجوع يستبد بكثير منهم .

وما يحدث الآن في إفريقيا الوسطى ليس سوى صورة من هذه الصور التي تتكرر في إفريقيا منذ عقود ، حيث نجد دولة تتمتع بالموارد الطبيعية والثروات يتحكم في رقاب شعبها مجموعة من العسكر يرتبطون بشكل مباشر بفرنسا أو بريطانيا أو إسبانيا أو إسرائيل أو إحدى الدول الإسكندنافية ، فتمتص حكومات هذه البلاد خيرات الدول الإفريقية ويزجون بالشعوب في محافل التعذيب الهمجي أو المذابح الوحشية كما حدث في بوروندي ورواندا والصومال وليبيريا وزائير وإفريقيا الوسطى التي تتعامل فرنسا مع شعبها وكثير من الشعوب الإفريقية الأخرى على أنها شعوب مستعبدة لصالح سعادة الفرنسيين ورفاهيتهم ، أما خيراتها وثرواتها فإنها حق من حقوق الفرنسيين ، وأما الشعوب الإفريقية فإنهم يظلون عبيدا للسادة الفرنسيين .

ولأن إفريقيا الوسطى دولة غنية بالماس واليورانيوم ـ وكلاهما من أهم الموارد الطبيعية في العالم ـ نجد فرنسا تسيطر تمامًا ليس على مقاليد الأمور فيها فحسب وإنما على ثرواتها كذلك ، ويقيم في إفريقيا الوسطى فرقة فرنسية بشكل دائم من أجل حماية المصالح الفرنسية وعلى رأسها شركات الماس واليورانيوم التي ترتبط بشكل مباشر بإسرائيل وجنوب إفريقيا باعتبارهما من الدول المهتمة بهذين المعدنين النفيسين ، وفيما يتمتع الفرنسيون بثروات وسط إفريقيا ومواردها وخيراتها فقد تركوا الشعب هناك يأكل التراب ، وقد دفع الجوع عشرات الآلاف منهم أن يخرجوا في شوارع العاصمة بانجوي

في نهاية مايو ١٩٩٦م يهتفون ضد فرنسا ودعمها للنظام الفاسد في البلاد ، وحينما توجهوا للسفارة الفرنسية ليعربوا عن احتجاجهم وجدوا القوات الفرنسية تقف في وجوههم وهي مدججة بالأسلحة لتمنعهم من أي تقدم نحو السفارة ، وفي نفس الوقت كان ضباط الجيش الذين لم يتقاضوا رواتبهم منذ عدة أشهر والذين يتهمون النظام الحاكم الموالي لفرنسا بالفساد يقومون بتمرد على هذا الاستعباد الفرنسي لهم ، وحينما انتقدت الصحافة العالمية الموقف الفرنسي وقف جاك جودفراين - وزير التعاون الفرنسي المعني بالمستعمرات الفرنسية السابقة في إفريقيا - ليعلن بغطرسة قائلا : «إننا نريد أن نكون رجل الشرطة في إفريقيا» .

وقد أدى هذا إلى قيام الصحف الفرنسية وعلى رأسها صحيفة ليبراسيون بانتقاد الحكومة الفرنسية «بدعمها لنظام فاسد كافأ المقربين بالڤيلات الفاخرة في الوقت الذي يتجاهل فيه منذ أشهر دفع رواتب جنوده وموظفيه المدنيين» .

إن ما يحدث في إفريقيا الوسطى ليس سوى صورة تعكس مأساة القارة الإفريقية ومأساة شعوبها ، واستمرار تسلط الدول الاستعمارية عليها وعلى خيراتها ، وأن هذه الشعوب ستظل تدفع ثمن التبعية والرضوخ حتى يأتي الوقت الذي تقرر فيه هذه الشعوب أن تتخلص من هذا الاستعباد ، لكن التاريخ علي أية حال لن يرحم هؤلاء اللصوص الذين يسرقون خيرات إفريقيا وثرواتها .

استفزاز فرنسا للمسلمين

مرة أخرى تؤكد فرنسا على كراهيتها بل وعدائها وتحديها للإسلام ومشاعر المسلمين ، ففي خطوة لاقت حتى استنكار بعض المفكرين الفرنسيين أصدر وزير الداخلية الفرنسي شارل باسكوا مؤخرا قرارا في إبريل ١٩٩٥م يقضي بمصادرة الطبعة الفرنسية من كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» للعلامة الدكتور يوسف القرضاوي ، ذلك الكتاب الذي كتبه د . القرضاوي في عام ١٩٥٨م وتُرجم إلى عشرات اللغات ، ووُزِّع في أنحاء الدنيا ، وقد تُرجم الكتاب إلى الفرنسية ويوزع في فرنسا منذ عام ١٩٩٢م ، ولعل رواجه بين المسلمين الفرنسيين ، والشباب منهم خاصة كان ـ حسب رأي المراقبين ـ من الأسباب الرئيسية وراء مصادرته ، وإذا كان القرار يحمل من الغرابة ما يحمل ، فإن الأكثر غرابة هو ما جاء في حيثيات المصادرة التي أشارت إلى أن «الكتاب يحمل روحا عدائية للغرب وأنه يهدد القيم التي تقوم عليها الجمهورية» ، والغرابة هنا في أن قيم الجمهورية التي يدّعي باسكوا بأن الكتاب يهددها تنص على حرية التعبير والنشر وحرية الاعتقاد والتدين ، لكن يبدو أن هذه القيم متاحة فقط من قبَل باسكوا ـ الذي ينهج نهجا عدائيا واضحا ضد المسلمين داخل فرنساً وخارجها ـ لمن يتطاولون على الإسلام والمسلمين ، وعلى رأسهم سلمان رشدي الذي استقبلته فرنسا رسميا مرتين في تحدٍ واضح لمشاعر المسلمين

ودينهم ، وكانت المرة الأولى في فبراير ١٩٩٣م ، حيث قال وزير التربية والثقافة الفرنسي جاك لانج أن سلمان رشدي هو «موضع ترحيب في فرنسا» ، وقد انتقد لانج أثناء استقباله لرشدي في باريس وقتها المسلمين المنتقدين لما يطرحه رشدي ، وقال لانج : «إن أفكار سلمان رشدي تدخل في إطار حرية التعبير الذي تقدره فرنسا» .

أما المرة الثانية فقد كانت في مارس ١٩٩٥م ، حيث استُقبل سلمان رشدي على أعلى المستويات في فرنسا ، وقد قال وزير الخارجية الفرنسي آلان جوبيه عقب لقائه مع رشدي في باريس في ٢٠ مارس ١٩٩٥م «إن فرنسا سوف تطالب وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي بمناقشة كيفية الضغط على إيران لإلغاء فتوى إهدار دمه» ، وأضاف جوبيه : «سنثير هذه القضية مرة أخرى أثناء اجتماع مقبل لوزراء الخارجية ، ونحن مستعدون لاتخاذ مبادرات جديدة في هذا الاتجاه» ، وفي سلوك دعائي بحت التقى رشدي كذلك مع المرشحين الثلاثة الكبار للرئاسة الفرنسية في ذلك الوقت جاك شيراك ، وإدوار بالادور ، وليونيل جوسبان ، ولعل هؤلاء الثلاثة أرادوا من خلال لقائهم المعلن برشدي أن يؤكدوا للناخب الفرنسي أنهم لا يقلون عن رشدي كراهية للإسلام والمسلمين .

والاستفزاز الفرنسي لمشاعر المسلمين أخذ في السنوات الأخيرة منحنى عدائيا واضحا تمثل في فصل الطالبات المسلمات المحجبات من المدارس ومنعهن من مواصلة الدراسة في المدارس الحكومية رغم صدور عدة أحكام قضائية لصالح الطالبات .

كذلك منع وصول الخدمات الأساسية عن المساجد مثلما فعل عمدة مدينة «شارفيو ـ شافانيو» في سبتمبر ١٩٩١م ، وترحيل بعض الدعاة المسلمين المقيمين دون ثبوت أية اتهامات ضدهم ، ومنع كثير من العلماء المسلمين بما فيهم علماء رسميون من الأزهر من دخول فرنسا لإعطاء محاضرات للمسلمين هناك ، وتوقيع اتفاقات أمنية ، وممارسة ضغوط قوية على المسلمين في فرنسا وخارجها باتفاق مع حكومات خارجية .

من هنا فإن القضية ليست قضية مصادرة كتاب ، وإنما هي حرب موجهة ضد المسلمين تمثل صورة من صور الحروب الصليبية التي قامت بها فرنسا ضد العالم الإسلامي قبل ثمانية قرون ، فوزير الداخلية الفرنسي شارل باسكوا الذي أصدر قراره بمنع الكتاب وقف في الرابع والعشرين من نوفمبر ١٩٩٣م أمام البرلمان الفرنسي وتعهد بمكافحة الأصولية ، وقال باسكوا : إن الأصولية الإسلامية لا تتوافق مع المبادئ الأساسية للدولة العلمانية الفرنسية ، وأضاف بأن : «المسألة هي مسألة دمج الإسلام بأنظمة مجتمعنا» .

وأعلن باسكوا رفضه لمطالبة المسلمين بفتح مدارس خاصة لتعليم القرآن ، وقال : «إن عملية التعليم يجب أن تندرج في إطار عملية الاندماج التي يريد بلدنا إنجازها» ، وقال مهاجما الحجاب : «إننا يجب أن نكون يقظين لنضمن ألا يتحدى الحجاب الإسلامي مبدأ العلمانية الذي يحكم مدارسنا» .

ولم يتوقف باسكوا من يومها عن مهاجمة الإسلام وإهانة المسلمين كلما أتيحت له فرصة لذلك ، وقام بعدة زيارات خاصة لدول شمال إفريقيا بهدف وضع خطط مشتركة لمحاصرة المد الإسلامي والقضاء عليه .

ويرتبط باسكوا بعلاقات وثيقة وحميمة مع كل الكتاب والمسئولين الفرنسيين المعروفين بعدائهم للمسلمين ، وعلى رأسهم جان كلودبارو ـ رئيس مكتب الهجرة الدولي في باريس ـ والذي له كتابات عديدة من بينها كتاب نُشر في عام ١٩٩٥م يهاجم فيه الإسلام بشدة ، وتشير بعض أصابع الاتهام إلى بارو باعتباره أحد الذين يرسمون سياسة باسكوا في مهاجمته للمسلمين .

وقد دفعت هذه السياسة مجلة «ليفينمان دي جودي» الفرنسية الأسبوعية أن تنتقد في عددها الصادر في آخر ديسمبر ١٩٩٤م سياسات شارل باسكوا تجاه المسلمين ، وأضافت المجلة بأن «باسكوا لا يبالي بالجالية المسلمة منذ توليه منصبه بل ويبرم اتفاقات مع حكومات دول شمال إفريقيا للسيطرة على هذه الجاليات في الوقت الذي يعتبر فيه معظم مسلمي فرنسا هم مواطنون فرنسيون» .

هذه الشواهد تؤكد على أن القضية ليست مصادرة كتاب وإنما هي حرب منظمة يقوم الإعلام فيها بعمليات التزييف والتضليل والتشويه للإسلام والمسلمين وتتحرك فيها إما بحقد له جذور قديمة أو توجيه من مسئولين كبار مثل باسكوا ، ولعل الطرح

الراقي الذي طرحه العلامة القرضاوي في المؤتمر الذي عُقد في باريس في أكتوبر ١٩٩٤م حول نظرة الإسلام الراقية للعلاقة بالغرب مما جعل الحضور الفرنسيين من غير المسلمين يبهرون بهذه المفاهيم ويصبون لعناتهم على شارل باسكوا وجون كلودبارو . . من المؤكد أن هذه اللعنات التي أصابت باسكوا من بني جلدته لها دور في قراره .

سويسرا تحارب الحجاب

كان أول ما صادفني بعد وصولي إلى جنيف في أكتوبر عام ١٩٩٦م هو قصة السويسرية المسلمة لوسيا دحلاب التي تحولت بحجابها إلى قضية أصبح المسلمون السويسريون طرفاً فيها ضد الحكومة الإقليمية في جنيف .

ولوسيا دحلاب هي سيدة سويسرية تعمل مدرِّسة للمرحلة الابتدائية في إحدى مدارس جنيف الحكومية ، أما قصتها فقد بدأت قبل حوالي عشر سنوات حينما كانت لوسيا تدرس في المرحلة الجامعية ، وقد شغلت بالبحث عن حقيقة خلقها ووجودها في هذا العالم ، ولم تقتنع لوسيا بالحياة التي تعيش في إطارها ، ولا بالمعتقدات التي يعتنقها من حولها ، ولم تمنعها حياة الترف والرفاهية التي يتميز بها المجتمع السويسري عن البحث عن الحقيقة ، وتحديداً عن دين تعتنقه يملأ نفسها ، وينتقل بها إلى الحياة التي تنشدها والمعتقدات التي ترتاح إليها ، وقضت لوسيا عدة سنوات في البحث والدراسة والقراءة ، حتى أنها سافرت إلى الهند وطافت بمعابدها ومعالمها آملة أن تجد فيها ما تبحث عنه مثل كثير من الغربيين الذين يفعلون ذلك ، إلا أنها عادت خالية الوفاض والتحقت بالعمل كمدرسة للمرحلة الابتدائية في إحدى مدارس جنيف عام ١٩٨٩ ، وواصلت بحثها ودراستها حتى هداها الله سبحانه وتعالى إلى الإسلام ، وأعلنت لوسيا إسلامها في

عام ١٩٩١ ، وارتدت الحجاب كفرض من فروض الإسلام وتعاليمه للمرأة المسلمة ، ورغم غربة الحجاب في تلك المجتمعات الغربية المترفة ، إلا أن لوسيا لم تتردد في ارتدائه أو تساوم عليه أو تتثاقل في الالتزام به مثلما تفعل بعض المسلمات في المجتمعات الغربية اللائي يحرصن على عدم ارتداء الحجاب مسايرة للمجتمعات التي يعشن فيها .

وبعدما أنعم الله على لوسيا بالإسلام واصلت عملها كمدرسة للمرحلة الابتدائية مرتدية حجابها ، وأنعم الله عليها بزوج مسلم من أصل جزائري فتزوجها ، وسارت حياتها بشكل طبيعي منذ عام ١٩٩١ وحتى نهاية الفصل الدراسي لعام ١٩٩٦م ، حيث أقامت المدرسة حفلتها السنوية للطلبة في نهاية العام وكانت لوسيا بين المدرسات الموجودات في الحفل ، وكان بين الحضور صحفي سويسري يدعى باسكال برابلان ما إن رأى لوسيا تقف بحجابها بين المدرسات حتى أخذه الحقد وملأت نفسه الكراهية وخرج متوجهاً إلى وزيرة التعليم في حكومة جنيف الإقليمية ورفع إليها مذكرة احتجاج على وجود مدرسة مسلمة ترتدي الحجاب ، وقال إن هذا أمر غير مسموح به في دولة لا دينية ، وكتب باسكال برابلان مقالاً في صحيفة «جورنال دي جنيف» بتاريخ ٢٢/ ٦/ ١٩٩٦ يحرّض فيه الحكومة الإقليمية في جنيف ضد المدرسة المسلمة التي مضى على ارتدائها الحجاب خمس سنوات في عملها دون أن تثير أي مشكلة أو قضية ، وذكر باسكال أنه تقدم بشكوى لوزيرة التعليم في

الإقليم حتى لا تسمح لهذه المدرسة المسلمة بارتداء الحجاب ، وقال إن الوزيرة تجاوبت معه وأعلنت أنها لن تسمح لأي مدرسة مسلمة بارتداء الحجاب ، وأنها تسمح فقط للطالبات ، وسرعان ما قامت مديرة التعليم الابتدائي في جنيف باستدعاء لوسيا دحلاب إلى مكتبها في ٢٧/ ٦/ ١٩٩٦ ، وطلبت منها خلع الحجاب وحذرتها من استمرار ارتدائها له ، إلا أن لوسيا أعلنت رفضها لخلع الحجاب وقالت إنها ترتديه منذ خمس سنوات وهو يدخل ضمن الحرية الشخصية التي يسمح بها المجتمع السويسري للسويسريين ، إلا أن مديرة التعليم الابتدائي عززت تحذيرها بخطاب رسمي وجهته إلى لوسيا في ١١/ ٧/ ١٩٩٦ قالت فيه : «إن ارتداء الخمار يخالف نظام التعليم في هذه البلاد» .

ونظراً لخطورة القضية على مستقبل النساء المسلمات السويسريات حيث إن إقرار منع المرأة المسلمة من ارتداء الحجاب في العمل سوف يمس الأجيال القادمة من المسلمات السويسريات بشكل عام واللائي أصبحن يشكلن أعداداً لا بأس بها في الجيل الثاني والثالث من مسلمي سويسرا ، فقد رأت مجموعة من المسلمات السويسريات ضرورة أن يتحركن بقوة في هذه القضية التي تعتبر اعتداء صارخاً يمس الحرية الشخصية للمرأة المسلمة ، وقد تحرك الشيخ يحيى با سلامة ـ مدير المؤسسة الثقافية الإسلامية في جنيف وأبرز علماء المسلمين هناك ـ لحث المسلمين على تبني هذه القضية حفاظاً على حقوق المرأة المسلمة السويسرية ومستقبلها

ومستقبل أبنائها بشكل عام ، وتم تكليف المحامي السويسري الشهير جاك باريبون بملف القضية ، حيث رفع مذكرة احتجاج إلى حكومة جنيف في ٢١/ ٨/ ١٩٩٦ بسبب موقف إدارة التعليم الابتدائي من لوسيا وإنذارها بخلع الحجاب ، وقال إن ارتداءها للحجاب يدخل ضمن إطار حريتها الشخصية ورغبتها في ستر نفسها بالصورة التي تراها ضمن الحقوق المكفولة لكل مواطن سويسري ، ثم رفع مذكرة احتجاج أخرى في ٢٧/ ٨/ ١٩٩٦ ، وصارت مداولات بينه وبين حكومة جنيف انتهت بإصدار حكومة جنيف قراراً في ٦/ ٩/ ١٩٩٦ بتنفيذ قرار إدارة التعليم الابتدائي الذي يقضي بوجوب خلع لوسيا لحجابها أو منعها من التدريس ، إلا أن لوسيا أعلنت رفضها للقرار والتزامها بالحجاب .

ثم أخذت القصة بعد ذلك منحى أكثر إثارة حينما أدلى القس بيير فارين الحبر الكاثوليكي لمنطقة جنيف بحديث إلى صحيفة «لوماتان» السويسرية نشرته في ٣٠/ ١٠/ ١٩٩٦ وجه فيه اللوم إلى المدرِّسة المسلمة لوسيا دحلاب بسبب إصرارها على ارتداء الحجاب في بلد علماني لا ديني ، وقال إن الحجاب يعتبر رمزاً صارخاً لعقيدة هذه المدرسة ، وأشاد بقرار حكومة جنيف بمنعها من ارتداء الحجاب أو منعها من التدريس في حالة إصرارها على ارتدائه ، كما نشرت بعض الصحف السويسرية مقالات وكتابات تؤيد موقف حكومة جنيف ضد المدرِّسة المسلمة وضد الحجاب والخمار .

وقد دفعت هذه التصريحات للحبر الكاثوليكي

الشيخ يحيى با سلامة أن يرد عليه ويرسل نص رده إلى صحيفة «لوماتان» التي نشرت جزءاً صغيراً منه في عددها الصادر في ٢/ ١١/ ١٩٩٦ حيث قال الشيخ با سلامة : «إن التزام المرأة المسلمة بالخمار هو جزء لا يتجزأ من ملابسها التي تجملها بالوقار والحشمة والعفة والكرامة ، حتى إن نساء النصارى في أوروبا كن يفعلن هذا حتى القرن الماضي ومازال بعض الراهبات يفعلن ذلك حتى الآن» ، واستغرب الشيخ با سلامة موقف القس الذي يعتبر تحريضاً ضد المسلمين في الوقت الذي يدعي فيه استعداده للحوار معهم» وقد أبلغني الشيخ يحيى با سلامة الذي تابعت معه تطورات القضية أن مسلمات جنيف قد شكلن لجنة للدفاع عن لوسيا ، وذلك لحفظ كافة حقوق النساء المسلمات السويسريات بشكل عام .

وقد قامت لجنة الدفاع عن لوسيا بتكليف المحامي جاك باريبون برفع قضية استئناف لقرار حكومة جنيف أمام المحكمة الفيدرالية في لوزان ، والقضية الآن لم تعد قضية لوسيا وحدها ، وإنما قضية كل امرأة مسلمة سويسرية وقضية الأجيال القادمة من المسلمات السويسريات اللائي يردن الحفاظ على حقهن في ارتداء الحجاب في مجتمع يعلن بكل صراحة الآن حربه على الحجاب .

حياة فتاة مسلمة في مدريد!

هذه الصفحات من حقها هي ، تلك الفتاة المسلمة التي لم تتجاوز ربيعها الخامس عشر ، والتي هزت كياني كله برسالتها تلك ، حتى أني حرت في أي موضع أضعها ، وفي أي موقع أنشرها ، ولكني بعد تفكير طويل لم أجد سوى أن أضعها في هذا الكتاب ، فهذا أقصى تكريم يمكنني تقديمه للفتاة الإسبانية المسلمة «يمان أيمن إدلبي» التي تدرس في إحدى المدارس المتوسطة في العاصمة الإسبانية مدريد ، ففي إحدى المسابقات الدورية التي تقيمها وزارة التعليم في إسبانيا طُلب من طلاب المرحلة المتوسطة أن يكتبوا موضوعاً تحت عنوان «منَ أنا؟» يتحدث فيه كل منهم عن نفسه ، وعن كيانه ، وعن ماهيته ، ومشاعره وأحاسيسه في المجتمع الذي يعيش فيه ، وكتبت يمان قصتها التي عبَّرت فيها عن نفسها ومشاعرها وأحاسيسها كفتاة مسلمة تعيش في المجتمع الإسباني ، وتقدَّمت بها مثل غيرها من الطلاب المشاركين إلى وزارة التعليم في العاصمة الإسبانية مدريد ، لكن المسؤولين حينما اطلعوا على قصة يمان رفضوا استلامها أو إدراجها ضمن المسابقة ، وحينما سألتهم عن سبب الرفض أخبروها بأن مثل هذه الموضوعات سوف تثير مشكلات لا يحبون التعرض لها ، فقالت لهم : أي مشكلات ، وأنتم مجتمع يرعى الحرية ، كما أني أعبر عن حقيقة نفسي

ومشاعري ، وهذا هو موضوع المسابقة الذي طلبتموه ، إلا أن يمان عادت حزينة إلى بيتها بعدما أصروا على رفض موضوعها ، ثم أرسلت لي رسالتها وقصتها التي أنشرها دون تعليق ، تاركاً لكل قارئ أن يشعر بما شعرتُ به بعد قراءة هذه الرسالة ، وأن يضع وساماً على صدر يمان تكريماً لها ، وعوضاً عن رفض وزارة التربية الإسبانية استلام قصتها ومكافأتها على صدق مشاعرها ، وأن يدعو لها ولكل مسلمة تعيش في هذه البلاد بالصبر والثبات . . تقول يمان في موضوعها الذي رفضت وزارة التعليم الإسبانية استلامه :

[بعض الناس ينظرون إليَّ وأنا أمضي في الشارع ، بشفقة ورأفة ، وبعضهم الآخر في احتقار وازدراء ، إلا أن هناك من ينظر إليَّ وإلى كل فتاة مسلمة محجبة تسير بينهم بشيء من التعاطف والمشاركة الوجدانية ، أولئك الذين ينظرون بشيء من الشفقة هم الذين يظنون أنني أُجْبرتُ على وضع الحجاب ، أما الذين تملأ نظراتهم مشاعر الاحتقار فهم الذين يكرهون المسلمين وما أكثرهم هنا .

معظم أولئك الذين لا يؤمنون بالإسلام يتحدثون عن أشياء لا يعلمون حقائقها ، ويروون حكايات عن المسلمين لا أساس لها من علم أو حقيقة ، فأنا فتاة مسلمة كعشرات المسلمين والمسلمات الذين يعيشون في مدريد ، لقد ولدت ونشأت وقضيت سنوات عمري الخمس عشرة في إسبانيا .

وعندما كنت صغيرة ، كان الناس يبدون لطفاً شديداً في معاملتهم معي ، ويوجد دائما استثناء ، فبعضهم كانوا على غاية من

الفظاظة في معاملتهم حتى مع طفل عمره سبعة أعوام ، مادام ينتمي إلى أسرة غريبة .

بعض جيراننا كانوا يعاملوننا وكأننا أهل وأقرباء ، وعلى الرغم من ذلك فإنهم لم يقبلوا قط ديننا ، ولا إسلامنا ، كانوا ما يفتؤون يرددون مازحين : «إياك أن تلبسي هذه الملابس الشنيعة التي ترتديها أمك» ، وآخرون : «لا تكوني مغفلة . . وتصومي رمضان . . إن هذا شيء مريع» ! ! .

وعلى الرغم من أنني كنت طفلة ولم أكن في ذلك الوقت محجبة ، ولا أحمل أي صفات عرقية تميزني عن الإسبان في شيء ، وعلى الرغم من أنني مولودة في إسبانيا ، وأذهب إلى المدارس الإسبانية ، فلقد كان زملائي في المدرسة لا يدعونني إلا «مورا» ، ولا يكفون عن تقريعي بكوني مسلمة ، شأن كل الأطفال ، يُعَيِّرُون كل واحد بما يؤلمه ، فهذا سمين ، وهذا قبيح ، وهذا كسول ، وأنا «مورا» أي مُسلمة .

لقد بذلت جهوداً دائمة للانضمام إليهم ، أو الاندماج في العالم الذي يعيشونه في إطار المدرسة ، ولكن نيتي الحسنة لم تشفع لديهم لتقبلي بينهم كفتاة عادية ، لأن التزامي بأوامر الإسلام ، كعدم أكل لحم الخنزير ، وعدم المشاركة في احتفالات رأس السنة ، والابتعاد عن المجموعات التي تمارس ألعاباً غير بريئة ، جعلهم لم يقبلوا قط أن أكون فرداً في تجمعهم المدرسي ذاك .

لقد اجتهدوا جميعاً على الرغم من صغر سنهم في إبعادي ، وإقصائي ، وتعميق مشاعر الغربة والاختلاف عنهم .

نشأت وكبرت . . وأخذت أرى الأمور بطريقة مختلفة ، ولم يعد يهمني على الإطلاق قبول الإسبان أو رفضهم لوجودي ، فمنهم من كان على غاية من اللطف ، ولدي مجموعة لا بأس بها من الصديقات اللواتي يحدّ من نمو صداقتي معهن وفقط التزامي بديني ، وعلى الرغم من ذلك فقد حاول البعض منهن تفهم الأمر ، واحترام الطريق الذي أسير فيه ، وهن لا يتورعن عن سؤالي في هدوء ودون إلحاح عن سبب هذا الأمر أو ذاك ، أو معنى هذا السلوك أو هذه العبارة أو تلك . . لم تعد لي أي رغبة في أن أكون جزءاً من هذا المجتمع ، بل لقد بدأت أبحث عن جذوري في رغبة وإصرار ، إنني أريد أن أعرف كل شيء عن الإسلام .

لقد صممت على وضع الحجاب . . لأنني أصبحت على ثقة بأنه من الواجب عليَّ وضعه ، ولقد واجهني أبواي بداية بالرفض ، لا لأنهما لا يريدان لي وضع الحجاب ، ولكن لأنهم يريدان لي أن أضعه عن رضا ، وقناعة وفهم ، لكي لا تكون خطواتي غير ثابتة في مجتمع يُضيِّق علينا جميع السبل .

لقد أردت أن أعود إلى الإسلام ، وألتزم بديني ، وقد فهمت حقيقة واضحة وهي أن هذا المجتمع الغربي الذي أعيش فيه ، لا يمكن أن يقبلني ، ولو ذُبْتُ فيه ، وتعلمتُ عاداته ، والتزمت تقاليده ، وحتى لو اعتنقت ـ لا قدر الله ـ دينه ، ولو لبست ملابس القوم ،

وأكلت طعـامـهم ، وشـربت شـرابهـم ، وحـتى لو دخلت في جلودهم ، وخرجت من جلدي ، فلن أكون بالنسبة إليهم إلا مسلمة أو «مورا» كما يحبون أن يسمـون كل مسلمة ، فلماذا لا أكون مسلمة ملتزمة يكرهـونها ويحترمونهـا ، ولا أكون مسلمة منحـرفة يكرهونها ويحتقرونها؟

أحيـاناً أشـعـر بالمرارة كلـمـا خـرجت إلى الشـارع وواجـهت نظرات الناس ، ولكنني أعود إلى نفسي وأقول : لا ينبغي أن يحزنني ذلك ، يجب أن أشعـر بالفخـر بما أنا عليه ، فأنا واثقة من هذا الدرب الذي أسير فيه ، ولا يهمني أحد إلا الله .

إنني أشـعـر بالعـزة والكرامـة . . بل بالسـعـادة المطلقـة لأنني لبست الحـجاب ، كـمـا أنني فـخورة بكل مـسلم يعـيش في أوروبا ويحافظ على دينه وأصوله] . انتهى .

أمريكا وتذويب الهوية الإسلامية

«أريد أن أرحب بكم هنا فى البيت الأبيض أيها الشباب من جميع أنحاء الشرق الأوسط ، فلدينا هنا الإسرائيلي والفلسطينى والمصري والمغربي والأردني ، جاء هؤلاء الشباب معًا إلى بلدنا كسفراء يمثلون جيلا بأكمله» .

هكذا استهل الرئيس الأمريكي بيل كليتون خطابه القصير الذي وجهه فى البيت الأبيض في الثامن من سبتمبر ١٩٩٤م إلى وفد يتألف من مائة شاب وفتاة من العرب و«الإسرائيليين» الذين دعتهم منظمة «بذور السلام» إلى الولايات المتحدة للتعايش فيما بينهم وتحقيق السلام بين العرب والصهاينة بشكل عملي وواقعي لا تستطيع الطرق الدبلوماسية تحقيقه ، وذلك حسب تصريح جون ولاك رئيس منظمة «بذور السلام» .

و«بذور السلام» هى واحدة من عشرات المؤسسات والهيئات الأمريكية والغربية المشبوهة التي أسست بغرض تذويب الهوية العربية والإسلامية مع الهوية اليهودية الصهيونية في بوتقة واحدة ، عن طريق إقامة معسكرات ولقاءات مشتركة ومختلطة لعناصر مختارة من الشباب والفتيات الذين تؤهلهم حكوماتهم ليكون لهم دور مستقبلي فى صناعة القرار فى بلادهم ، وقد أنشأ هذه المنظمة

الصحفى الأمريكي اليهودي جون ولاك محرر الشئون الخارجية في مجموعة صحف هيرست ، وذلك فى ولاية مين بالولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٣ بهدف تشجيع الصداقة والتفاهم بين الشباب العربي والإسرائيلي وفي أعقاب إعلانه عن تأسيس هذه المنظمة قال كلارك : «إنه من المنطقي العمل مع الأحداث من العرب والإسرائيليين الذين تتراوح أعمارهم بين ١١ ، ١٤ عامًا قبل أن يسممهم مناخ منطقتهم» وقد دعت «بذور السلام» فى العام ١٩٩٣م ٤٦ صبيًا وفتاة من فلسطين ومصر و«إسرائيل» حيث أقامت لهم مخيمًا فى ولاية مين ثم شاركوا فى حضور حفل التوقيع بين «إسرائيل» ومنظمة التحرير والذي تم فى البيت الأبيض فى الثالث عشر من سبتمبر من العام ١٩٩٣ .

أما فى عام ١٩٩٤م فقد بلغ عدد الوفد أكثر من مائة من الشباب والفتيات ، ولم يقتصر تمثيلهم على مصر و«إسرائيل» وفلسطين وإنما شارك فيه إضافة إلى ذلك شبان من المغرب والأردن ويتم السعي الآن لتوسيع رقعة المدعوين فى الأعوام القادمة ليشملوا دولا أخرى وأعداداً أكبر حيث تم الاحتفاء بهم على أعلى المستويات فى الولايات المتحدة ، فقد استقبلهم الرئيس الأمريكي كلينتون ونائبه آل جور الذي دعاهم إلى «كسب أصدقاء جدد ومنظور جديد» ، وأضاف قائلا فى عبارة تحمل احتمالات كثيرة : «وآمل أن تنتهزوا هذه الفرصة للترفيه عن أنفسكم واكتساب كل ما تستطيعون من تجارب» .

وعلاوة على تذويب الفوارق الأخلاقية المستهدفة من وراء هذه الزيارات ، تم تذويب الفوارق الدينية أيضًا بأن تم دعوة الوفد لزيارة معبد يهودي أقام فيه الشبان المسلمون واليهود صلاة مشتركة ، لم يذكر تقرير وكالة الإعلام الأمريكية الذي أورد القصة والصادر بتاريخ ١٢ سبتمبر ١٩٩٤م على أي دين كانت ، ثم قام الوفد بزيارة مركز إسلامي وأدى فيه اليهود والمسلمون أيضًا صلاة مشتركة .

وتعتبر منظمة «بذور السلام» واحدة من عشرات المنظمات اليهودية السرية والعلنية التي تعمل لتذويب الفوارق الدينية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية بين العرب و«الإسرائيليين» بغية إيجاد شخصية عربية جديدة ممسوخة الهوية تفتقد الانتماء إلى الأرض والوطن واللغة والدين ، وتعمل دونما شعور على ترسيخ الوجود الصهيوني وتقوية نفوذه فى قلب المنطقة العربية والعالم الإسلامي ، وأن تصبح الشرق أوسطية هي المفهوم الجديد للانتماء للمنطقة وهذه الجمعيات لا تعمل فى مجال الشباب والطلاب فقط ، وإنما تعمل فى مجالات أخرى عديدة أهمها طبقة رجال الأعمال وطبقة المثقفين والصحفيين والمفكرين ، وطبقة الدبلوماسيين وصناع القرار وإن كانت تعطي اهتمامًا أكبر للتركيز على الأجيال القادمة على اعتبار استمرار وجود مقاومة ورفض لدى قطاع عريض من الأجيال الحالية ، وعلى اعتبار عنصر الزمن عنصراً أساسيًا من أساسيات تحقيق أهدافهم .

ورغم أن معظم المنظمات السرية تعمل منذ عقود عديدة فى هذا المجال إلا أن المنظمات العلنية بدأت تظهر فى أعقاب قيام الرئيس المصرى أنور السادات بالتوقيع على معاهدة كامب ديڤيد عام ١٩٧٩ ، حيث أعلن فى عام ١٩٨١ عن إنشاء رابطة «أمريكيون من أجل السلام» وهى رابطة يهودية تبنت تذويب الصراع بين العرب واليهود بدعوة العرب إلى قبول الأمر الواقع والعيش فى سلام مع اليهود ، ثم عقدت تحالفاً فى العام ١٩٨٩ مع «المؤسسة الأمريكية العربية» للعمل من هناك على إقرار السلام بالمفهوم الصهيوني في المنطقة ، وفى عام ١٩٨٤ تم تأسيس «الجمعية القانونية للحريات المدنية فى «إسرائيل» والولايات المتحدة» حيث تولت تدريب محامين عربا و«إسرائيليين» بهدف تذويب الفوارق بينهم أثناء فترات التدريب ثم يعودوا إلى بلادهم بمفاهيم جديدة ، وتتلقى هذه الجمعية التي يوجد مقرها الرئيسي في الجامعة الأمريكية في العاصمة واشنطن دعمها من «الصندوق الإسرائيلي الجديد» وأثناء احتفال أعضاء هذه الجمعية بمناسبة مرور عشر سنوات على تأسيسها فى فبراير ١٩٩٤م أكد الأعضاء الواحد تلو الآخر على أهمية الجمعية ودورها الذي تقوم به من تأثير فى «إسرائيل» والمناطق العربية .

وفى مجال رجال الأعمال وكبار التجار فقد بدأ النشاط اليهودي يأخذ شكل البروز فى هذا المجال فى العام ١٩٩١م ، وعقدت عدة اجتماعات بين رجال أعمال عرب و«إسرائيليين» فى

عـدة عـواصـم أوروبيـة وعـربيـة كـان أحـدهـا فى اسطنبـول في عـام ١٩٩٤م تـم خـلالهـا ترتيب العـلاقـات التـجـارية لمرحلة مـابعـد رفـع المقاطعـة الاقتصـادية التي بدأ تنفيذها بالفعل حتى أن أحد المسئولين «الإسرائيليين» صـرح بأن حـجـم التـبـادل التـجـاري بيـن «إسـرائيل» والدول العربية قد زاد خلال العام ١٩٩٤ على ٤٠٠ مليون دولار .

أمـا «منظمـة المبادرة من أجل السـلام والتـعـاون فى الشـرق الأوسط» والتي أسـسـت سـريـاً عـام ١٩٩١ وضـمـت كُـتَّـابـاً وصـحـفـيين ودبلـومـاسـيـين «إسـرائيليين» وعـربًا و«إسـرائيليين» وعـقـدت ست اجـتـمـاعـات حـتى الآن ، فـإنـهـا تعـتـبـر من أخـطـر هـذ المنظـمـات ، حـيـث تـتـوسـع كـل يـوم رقـعـة المنتـمـين إليـهـا من الدبلـومـاسـيـين والصـحـفـيـين والمفكرين والكـتـاب وعـلـمـاء الاجتـمـاع وصناع القرار . . إن هذه المعطيات والأحداث تشير إلى منحى خطير تخطى مرحلة التطبيع التي ترفضها الشعوب إلى مـرحلة أخطـر هى مـرحلة تذويب الهـوية ومـحـو الانتـمـاء لدى المسلمين ، وهذا هدف رئيسي تسـعى له الدول الغربية التي تقـوم بدور الوساطة بين الدول العربية والإسرائيليين .

تصاعد العداء العنصري ضد المسلمين

تصاعدت حدة العداء العنصري ضد المسلمين المقيمين في الولايات المتحدة وأوروبا خلال السنوات الخمس الأخيرة بشكل أصبح يخلو من كافة أشكال الارتقاء الإنساني ، كما أنه يكشف عن أبعاد أحقاد دفينة في النفوس يصعدها الإعلام الغربي الذي يسيطر عليه الصهاينة من ناحية ، والعداءات القديمة النابعة من تاريخ الحروب الصليبية من ناحية أخرى ، كما أنه يكشف جانباً كبيراً من عمليات الزيف والخداع لما يسمى بمفاهيم الحضارة الغربية عن الحق والعدل والمساواة ، وتكفي نظرة سريعة وفاحصة لبعض التجاوزات التي تمت ضد المسلمين بسبب دينهم خلال السنوات القليلة الماضية لتؤكد على هذه الحقائق ، ومع الصور التي استشهدنا بها من قبل في فرنسا وسويسرا وإسبانيا تأتي حوادث وشواهد أخرى عديدة لتؤكد على أن ما يحدث ليس حوادث فردية كما يحلو للبعض أن يصف ، ولكنها أصبحت منهج حياة تسلكه المجتمعات الغربية في كثير من الصور والأشكال ، ففرنسا منذ أوائل التسعينيات وهي تقوم بشكل منتظم بطرد الفتيات المسلمات المحجبات من المدارس ، ورغم الأحكام القضائية التي حصلت عليها كثير من الطالبات ، إلا أن السلطات الفرنسية تصر على عدم السماح للفتيات المسلمات بدخول المدارس بالحجاب ، وذكرت صحيفة «العالم الإسلامي» في

عددها الصادر في ٢/ ١٢/ ١٩٩٦م بأن السلطات الفرنسية قد فصلت ٢٦ طالبة مسلمة حديثاً من المدارس بسبب ارتدائهن الحجاب ، وقبل ذلك نشرت مجلة «المجتمع» في ١٤/ ٢/ ١٩٩٥م نداء من السيدة «ساندرا الزياني» وهي فرنسية أسلمت وتعاني منذ دخولها الإسلام من الاضطهاد من قبَل السلطات بسبب ارتدائها الحجاب ، طالبت في ندائها بحق اللَجوء السياسي لإحدى الدول الإسلامية ، ولعل أعجب أشكال التشويه والاضطهاد الفرنسي للإسلام والمسلمين هو الحملة التي شنتها الممثلة الفرنسية «بيرجت باردوا» من خلال رسالة وجهتها إلى رئيس وزراء استراليا جون هوارد في مارس ١٩٩٧م تنبهه فيها إلى أن ذبح الخراف الاسترالية في فرنسا يتم «دون تخدير» ، كما شنت هجوماً على المسلمين متهمة إياهم بالوحشية لأنهم يذبحون الأضاحي في عيدهم ، وتساند باردوا جهات سياسية وجهات قومية متطرفة تطالب بطرد المسلمين من فرنسا ، حيث قامت هذه الجهات بمقاضاة بعض المزارعين الفرنسيين الذين يبيعون اللحوم المذبوحة للمسلمين ، وطالبت بأن يأكل المسلمون الخنزير ، شأنهم شأن الفرنسيين ، ونفس الأمر حدث في بريطانيا حيث اتهم محمد إسلام وهو مسلم بريطاني ممثل لحزب العمال في مجلس «رادوفورد وارد» المحلي في مدينة «توتنجهام» التي تتركز الجالية الإسلامية البريطانية فيها بنسبة ٣٥٪ اتهم السلطات البريطانية بأنها لا توفر للطلبة المسلمين في المدارس وجبات حلال ، وأنها توزع عليهم لحم الخنزير ، شأنهم شأن الطلبة غير المسلمين ، متذرعة بعدم وجود موارد مالية .

وفي نوفمبر ١٩٩٦م قالت فريدة خانوم وهي فتاة بريطانية مسلمة أنها تنوي مقاضاة شركة «أي . بي . سي» البريطانية بعدما طردتها الشركة من عملها ، حيث عملت مهندسة فيها لمدة أربع سنوات ، ويأتي سبب طردها «لأن مدير الشركة لم يحتمل رؤية موظفة تغطي رأسها» ، وقالت فريدة إن مأساتها بدأت حينما أدت العمرة في سبتمبر عام ١٩٩٦م وعاهدت نفسها بعد عودتها أن تلتزم بارتداء الحجاب ، وأنها طوال أربع سنوات من عملها في الشركة تحظى بكل الاحترام والتقدير ، أما حينما قررت ارتداء الحجاب بدأ التمييز والاضطهاد ضدها من قِبَل المسؤولين في الشركة ثم قاموا بفصلها ، وقال متحدث باسم جمَعية المحامين المسلمين في بريطانيا «من الواضح أن فريدة تعرضت للتمييز بسبب ديانتها لأنها فتاة ذكية وذات كفاءة ، ومع ذلك فصلت من عملها لأنها اختارت أن تلتزم بمتطلبات معتقدها» ، ولهذا قررت اللجوء للقضاء ، وهذا نفس ما فعله أحد المسلمين الذين يعملون في الدانمارك ، فقد ذكرت صحيفة «الشرق الأوسط» في عددها الصادر في ١٣/ ٤/ ١٩٩٧م أن «أحد مكاتب العمل في الدانمارك يواجه دعوى مرفوعة من قِبَل أحد المسلمين المقيمين هناك بتهمة التفرقة العنصرية لطرده من العمَل لأنه كان يؤدي الصلاة في فترة الاستراحة في العمل ، وقالت صحيفة «البولتكن» الدانماركية التي تناولت هذا الموضوع أن الرجل كان يصلي صلاته اليومية وقت الظهر خلال فترة الغداء ، وقد طرده مكتب العمل بشكل سافر ، أما مركز الاستشارة القانونية ، فقد هب

لمساعدة العامل المذكور ، وقال على لسان مسؤوليه أنه يُعد القضية من باب التفرقة العنصرية ، وأنه سوف يدعم بشدة هذا الشخص ليرفع الدعوى إلى المحكمة العليا مطالباً بتعويض قدره ١٥٠ ألف كرونة ، وأن سلوك مكتب العمل كما تذهب الآراء القانونية المؤيدة للعامل المسلم المفصول تجاوز القانون ، ليس هذا فحسب ، بل إنه سلوك ممنوع ، لأن مسألة الصلاة تخص الفرد ذاته وهي من صميم العقيدة .

أما السيد هيننك يوغنسنس ـ مدير مكتب العمل في منطقة «كولنك» ، ورئيس مدرسة إعداد العمال هناك ـ فيقول : «إنه في مدرسته الكثير من الطلاب المسلمين الذين يؤدون صلواتهم في أوقات الفرص ، وأن العقيدة والتدين مسألة شخصية والمفروض بمكاتب العمل ألا تتورط في قضايا غير مجدية أو تختلق المشاكل لطرد العمال بحجج واهية ، إضافة إلى ذلك طالبت وزيرة العمل الدانماركية السيدة يته أندرسن عبر ندائها للصحافة مراكز العمل باحترام العقائد وإعطاء الضمان للمؤمنين بممارسة واجباتهم الدينية ، وقالت الوزيرة إن وزارة العمل تسلمت عدة شكاوى متعلقة بقضايا التفرقة والتمييز خاصة من النساء اللائي يرتدين غطاء الرأس ، حيث طلب إليهن عدم ارتدائه» .

كما قامت شركة «جي . سي . بني» الأمريكية في أغسطس ١٩٩٦م بفصل فتاة مسلمة من أصل صومالي بسبب ارتدائها الحجاب ، وحينما تحركت الجالية المسلمة ضد هذا السلوك اعتذرت

الشركة ، كما قام أحد المسلمين الأمريكيين من أصل أردني بمقاضاة شركة «يونايتد إيرلاينز» بعدما فصلته من العمل بسبب ديانته ، وحكمت له إحدى المحاكم بولاية كاليفورنيا في أبريل ١٩٩٧م بتعويض قدره ٢,٩ مليون دولار .

ورغم بعض الإنصاف القائم في بعض المجتمعات من الناحية القضائية إلا أن معظم المجتمعات بما فيها مؤسسات الدولة ووسائل الإعلام لا تخفي عداءها المباشر للمسلمين وتبقى نسبة الإنصاف محدودة للغاية مقارنة بالعداء السافر ، ولعل الاتهامات التي وجهت للمسلمين الأمريكيين بعد حادث أوكلاهوما كفيلة ببيان ما يتعرض له المسلمون في تلك المجتمعات من تفرقة عنصرية واضطهاد ، وهذه مؤشرات تؤكد على أن الغرب لم يعد واحة الأمن والأمان التي كان ينظر إليها بعض المسلمين ، وإنما تؤكد هذه الشواهد على أن الفترة القادمة ربما تشهد مزيداً من العنصرية والاضطهاد ضد المسلمين على وجه الخصوص .

«أوليسترا».. الاختراع الأمريكي الجديد!

نظرت إلى طبق الطعام الذي وضعه الزميل د . أحمد يوسف ـ مدير المؤسسة المتحدة للدراسات والبحوث في واشنطن ـ أمامي ولم أجرؤ على أن أمد يدي إليه ، فنظر إليَّ باستغراب ، وقال : مالك لا تأكل؟ فتأخرت قليلا عن الجواب لأني كنت في مقاومة شديدة مع معدتي التي بدأت تنتفض رافضة هذه الرائحة النفاذة المنبعثة من الطعام الذي تقدمه مطاعم الوجبات الخفيفة التي تملأ الولايات المتحدة ودول الغرب عمومًا ، والتي اضطررنا للجوء إليها حينما حان وقت الغذاء أثناء تواجدنا في مبنى الصحافة الوطني في العاصمة الأمريكية واشنطن ، كانت المطاعم التي تملأ طابقًا كاملا من المبنى الكبير تحمل أسماء لأطعمة من دول مختلفة ، إلا أنها جميعًا تكاد تحمل مواصفات واحدة ، فهي وإن اختلفت ألوانها وأشكالها وأسماؤها إلا أنها تلتقي في صفة أساسية وهي أن صلصة الطماطم «كيتش أب» تغطيها ، وتنبعث منها روائح نفاذة تكاد تكون متطابقة .

نظرت إلى المكان المزدحم بالناس فوجدت الجميع مكبًا على ما أمامه من طعام يلتهمه بسرعة ، إلا أنا . . فعلاوة على أني لا أعرف ما الذي أمامي في الطبق ، ومن المستحيل أن آكل شيئًا لا أعرفه ، فقد كانت مشكلتي الأساسية في الرائحة النفاذة للأطعمة

التي عادة ما تسبب مشكلات لي في أسفاري ، فأضطر للابتعاد عن تلك المطاعم والاكتفاء بأكل الفواكه أو على الأقل البحث عن شيء أعرفه لأتناوله .

قال أحمد يوسف : يبدو أن الطعام لم يعجبك ، هل أحضر لك نوعًا آخر؟ قلت له : لا إنه جيد ، ثم إنه ليس هناك على ما يبدو نوع آخر فالرائحة واحدة والألوان مختلفة فقط ، وصلصلة الطماطم تغطي كل شيء وبالتالي فيجب أن أغمض عيني وأسد أنفي وأبدأ الطعام ، لاسيما وأننا لم نتناول فطورنا بعد ، وقد اقتربت الساعة من الثانية بعد الظهر ، لكني قبل أن أبدأ بهذه الإجراءات أرجو منك مشكوراً أن تعرفني بمحتويات هذا الطبق وما الذي تخفيه صلصة الطماطم تحتها؟ غرق أحمد يوسف في الضحك وهو يشرح لي مكونات الطبق التي لم أستوعب منها شيئًا لأنني أحمل رأيًا خاصًا في مثل هذا الطعام كنت أحتفظ به دائمًا حتى قرأت رأيًا متطابقًا لرأيي ذكره الكاتب الأمريكي هنري ميللر حيث قال : «الأمريكيون يمكن أن يأكلو «زبالة» يغطونها بصلصة الطماطم والخردل والفلفل الأحمر والصلصة الحارة الجهنمية أو أية توابل أخرى تتلف المذاق الأصلي للطعام» ، وهذا ما وجدته بالفعل حينما قاومت وأكلت بعض ما في الطبق ، وحتى اليوم لم أعرف ماذا أكلت سوى أنه كان شيئًا مما ذكره هنري ميللر ، ولم أقم بتكرار التجربة مرة أخرى من يومها رغم اضطراري في بعض الأسفار إلى البقاء ساعات طويلة دون طعام ، فما يقرؤه الإنسان ويعرفه عن مكونات الأطعمة والوجبات السريعة التي تقدمها المطاعم هناك وتأثيرها الضار على

المدى الطويل على جسم الإنسان تجعله يفكر جيداً قبل أن يقلد الناس فيما يأكلون لاسيما وأن الغربيين يطلقون على هذه الأطعمة مسمى (JUNK FOOD) وهي كلمة عامة تطلق على الأطعمة ذات القيمة الغذائية المتدنية المغطاة دائمًا بصلصة الطماطم أو الفلفل الحار ، وأشهر تلك الوجبات «الهامبورجر» الذي يدخل في تكوينه بقايا اللحوم والجلود والدهون ، وهذه الأطعمة بشكل عام تقدم طعمًا ربما يكون لذيذاً وتحتوي على كميات كبيرة من السعرات الحرارية مما يساعد على تراكم الدهون والشحوم في الجسم ، لكنها لا تقدم أية فائدة غذائية للجسم حسب دراسات أخصائيي التغذية الذين يسمونها «الأطعمة الخالية من القيمة الغذائية» وقد أدى انتشار المطاعم التي تقدم هذه الأطعمة في أوروبا والولايات المتحدة إلى إهمال الناس هناك في اختيار نوعية الغذاء الصحي مما أدى إلى امتلاء أجسامهم بالشحوم ، وهذه مشكلة تعاني منها الولايات المتحدة على وجه الخصوص لذلك فإن جمعية القلب الأمريكية وجمعية السرطان الأمريكية والمكتب العام للجراحين الأمريكان يصدرون من آن لآخر بيانات وإحصاءات تبين خطورة هذه الأطعمة على صحة الإنسان وينادون بضرورة خفض كميات الدهون في الطعام .

والأمر بالنسبة لمحتويات (JUNK FOOD) لا يتوقف عند حدود مكوناتها العالية من الأملاح والسكريات والسعرات الحرارية والدهون ، بل إن الأمر أخطر من ذلك حيث يدخل في تصنيع هذه الأطعمة الكثير من الأصباغ الصناعية والمواد الحافظة ومواد مشتقة

من الصناعات البترولية ، وهذه المواد لا يتوقف ضررها ـ حسب بعض الدراسات الأخيرة ـ على أنها خالية من القيمة الغذائية ، وإنما تتخطى ذلك إلى إصابة الجسم بأضرار صحية ، بل ثبت علميًا أنها قد تكون من مسببات السرطان وأمراض أخرى خطيرة .

وعندما ظهرت مشكلة «جنون البقر» في بريطانيا نشرت دراسات وأبحاث كثيرة عن مخاطر استخدام الأجزاء غير الصالحة للاستخدام الآدمي من أجساد الأبقار في الوجبات الخفيفة التي يتناولها الناس بنهم وتلذذ في الغرب وكذلك في بلادنا الآن ، وكان مما اطلعت عليه تصريح وصف بأنه لأحد أكبر مصنعي اللحوم في الولايات المتحدة الأمريكية رفض ذكر اسمه حيث قال : «إننا حينما نذبح عجلا أو بقرة فإننا لا نحب أن نلقي منها شيئًا ، فاللحوم تباع إما طازجة أو مجمدة ، والعظام تدخل في صناعات كثيرة مثل مواد التجميل وبعض الأطعمة والأسمدة والأعلاف الحيوانية ، والقرون والحوافر لها من يشتريها من أصحاب الصناعات المتخصصة ، كما أنها تستخدم في صناعة الأسمدة ، أما الجلود فإنها يتهافت عليها صناع الأحذية ، والملابس الجلدية ، ولكن ماذا عن أحشاء هذه الأبقار والأعصاب والشحوم وبعض بقايا اللحوم المتناثرة هنا وهناك من جراء عمليات التقطيع . . هل نلقيها في القمامة؟ لاأعتقد أن ذلك اختيار جيد ، ولكنها مع قليل من البهارات والإضافات الأخرى يمكن أن تصبح هامبورجر لذيذة ، وعندما تُحضَّر بالطرق الخاصة وتقدم مع السلطة وصلصة الطاطم والبطاطا المقلية ستكون رائعة . . أليست وجبة الهامبورجر أفضل من إلقاء هذه البقايا في الزبالة؟» .

انتهى الكلام وأعتقد أنه ليس بحاجة إلى تعليق ، والمشكلة ليست فيما يأكله الغربيون فهم أحرار فيما يأكلون ولكن المشكلة أن هذه المطاعم بدأت تغزو العالم العربي وأصبحت تلقى قبولا كبيراً دون أن يلتفت الناس للمخاطر الصحية المترتبة على التناول الدائم لما تقدمه من وجبات ، ومع كثرة الحديث في الغرب عن المخاطر الصحية التي تسببها الوجبات السريعة فقد تم الإعلان مؤخراً في الولايات المتحدة عن اختراع مادة غذائية جديدة تدعى «أوليسترا» ، وقد أنفقت الشركة الأمريكية المنتجة لها ٢٠٠ مليون دولار على أبحاث سرية استمرت ما يقرب من ثلاثين عامًا للتوصل إليها ، وهي مادة تتكون من ستة جزيئات من الدهون إلى جوار جزيء واحد من السكر وهي لا تهضمها المعدة ولا تمتصها الأمعاء ، وكما تدخل الجسم تخرج منه لكن مذاقها لذيذ كالقشدة والزبدة ودسم اللحم .

وقد توقعت الشركة المنتجة «بروكتر أندجامبل» أن تسيطر على كل موارد الأطعمة المشهية والوجبات السريعة في الولايات المتحدة بواقع ١٥ بليون دولار سنويًا بعد طرحها هذه المادة في الأسواق مؤخراً ، إلا أن «أوليسترا» ما كادت تشتهر حتى ظهرت مخاطرها الصحية بسرعة ، حيث اضطرت وكالة الأغذية الأمريكية إلى أن تحذر المستهلكين منها معلنة أنها قد تسبب الإسهال والمغص وتحول دون امتصاص بعض الفيتامينات والمعادن ، كما أصدرت الإدارة الأمريكية للعقاقير تقريراً في شهر يونيو ١٩٩٦م ذكرت فيه أنها أجرت دراسات على مستخدمي أوليسترا في ثلاث مدن أمريكية فقط فثبت أن ٢٠٪ منهم أصيبوا بتلبكات في المعدة وأن ٣٪

أصيبوا بأمراض خطيرة ، وقد طالبت الإدارة الأمريكية للعقاقير بحماية الناس من هذا المنتج ، وأشارت دراسات أخرى إلى أنها قد تسبب السرطان باعتبارها مادة كيماوية شأنها في ذلك شأن أية مادة كيماوية أخرى .

وهذا الأمر لا يشكل حتى الآن مشكلة للمستهلك العربي ولكن المشكلة أن الشركة المنتجة «بروكتر أندجامبل» ترتبط بمصالح صناعية مع أشهر شركات النفط والمنتجات الغذائية التي تعمل وتنتشر منتجاتها وفروعها في كثير من الدول العربية ، وبالتالي فمن غير المستبعد أن يتم إغراق الأسواق العربية بهذا الاختراع الجديد «أوليسترا» سواء باسمه هذا أو تحت أي مسمى آخر تمامًا كما تم إغراق الأسواق العربية بمنتجات أخرى كثيرة لا تقل خطورة عنه ، وفي ظل شغف البعض الآن بكل ما هو أمريكي فلا ندري حجم المخاطر الصحية التي يمكن أن تسببها «أوليسترا» إذا تسربت للأسواق العربية .

كتب للمؤلف

الكتـــاب	الناشـــر
١ ـ مستقبل كابل	دار الوفاء ـ مصر
٢ ـ تحت وابل النيران في أفغانستان	دار ابن حزم ـ لبنان
٣ ـ امرأة من أفغانستان	دار ابن حزم ـ لبنان
٤ ـ قضايا العالم الإسلامي في ظل النظام العالمي الجديد	دار ابن حزم ـ لبنان
٥ ـ أضواء على السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط	دار ابن حزم ـ لبنان
٦ ـ تحت وابل النيران في سراييفو	دار ابن حزم ـ لبنان
٧ ـ مستقبل أفغانستان	دار ابن حزم ـ لبنان
٨ ـ سقوط الحضارة الغربية	دار القلم ـ دمشق
٩ ـ الاختراق الإسرائيلي للعالم العربي	
١٠ ـ النفوذ اليهودي في الإدارة الأمريكية	دار القلم ـ دمشق

* * *

الفهرس

